إفساد اليهود

كما جاء في القرآن والتوراة والإنجيل

الدكتور
محمد السنباطي

اليهود . . ذلك البيت المتمرد ، والشعب الطريد ، القلق في كل مكان ، لا تحل به عصا الترحال في موطن حتى تضطرب به أرضه ، ويتلوى بوجوده ثراه ، وتضجر حصباؤه حتى تلفظه عنها بعيداً . . بعيداً ، كما يقذف المندف نتف القطن العفنة ! ! .

على ضفاف نهر « الراين » طاب لهم العيش ، ونعموا بالحياة فوق واديه ، منذ القرن الثامن الميلادي ، ثم لم تلبث أرضه الطيبة أن ضاقت ذرعاً بفسادهم وإفسادهم في المجتمع الإنساني ، وتخريبهم لكل مقومات الإنسانية الفاضلة ، فضاقت عليهم بما رحبت ، فأعملت فيهم الذبح والتشريد ، وكانوا كلما طردوا عنها بعيداً ارتدوا إليها كذباب الوباء الثقيل ، حتى كانت خاتمتهم الحالقة على يد « هتلر » الذي اشتهر عنه أنه كان يحصدهم جراداً ، ويئدهم ذرافات في خنادق الموت ، بسيئات أعمالهم (١) .

ومن قبل ، خلا لهم الجو ، فباضوا وانتعشوا ونموا في « الأندلس » تبسمت لهم الحياة ، وانبثت ذراريهم في شعاب البلاد ، وحبلت خزائنهم بإلههم الذهب ، مستغلين سلام الإسلام والمسلمين ، ولكنهم أفسدوا في الأرض ، وخربوا معنوياتها ، وما يزالون يفسدون فيها

حتى انقلبت الحدثان بالبلاد ، وتبدل الدين ، وجثم على عرشها « « فرديننند » فأخذت الأرض تمور بهم من تحتهم ، وتهوعت بهم جوانب بطونها ، فسلطت عليهم « محاكم التفتيش » تفتك بهم ، ثم ألقت ما فيها وتخلت عمّن بقى منهم إلى خارج البلاد ، مطرودين ، لا يحل لهم أن يدخلوها (١) .

وحول قلعة « بورك » هاجم الشعب الإنجليزي اليهود المرابين ، الذين يختبئون داخل حصونها ، وأشعل فيهم النيران ، بعد أن بلغ به السيل زباه ، وشعر الإنجليز أن ثروتهم تتسرب من بين أيديهم إلى خـــزائن اليهـــود ، وأصبحت دولتهم مهـــددة بالإشراف على حافة الإفلاس إذا ما ظلت خاضعة للوسائل غير المشروعة التي يستغلها اليهود ، للاستحواذ على عصب حياتها فأصدر الملك « إدوارد الأول » قراراً بطردهم من البلاد ، بعد أن أعدم طائفة منهم ، وأزهق الشعب أرواح طائفة أخرى عام ١٢٩٨ م (٢) .

ونجحت مؤامرة بني اسرائيل في الكيد لأخيهم « يوسف » بعد أن غدروا به ، وألقوه في غيابة الجب ، ثم اشتراه وزير الملك الهكسوسى « أبابي رع كتّن » واصطفاه لبيته ، ثم سجن ، ثم أطلق سراحه وعين أميناً عاماً « زافتات بناخ » وقع ذلك في منتصف القرن الثامن عشر ق . م (٣) .

وتبع « يوسف » إلى أرض مصر أبناء يعقوب وأحفاده عندما حلت بهم المجاعة ، فأكرمت مصر وفادتهم ، وأقطعهم ملكها ــ آنذاك ــ أرض « جاسان » (٤) فنعموا بخصبها ، وكثرت ذراريهم فيها ولكنهم نسوا الله فنسيهم ، وعاثوا في الأرض فساداً ، واستحلوا المحارم ، وعبدوا الأصنام التي كانت سائدة ، وتخلوا عن عبادة الله ، وتآمروا على الشعب الذي أكرمهم ومالئوا أعداءه ، فانقلب الحكام عليهم ، فقتلوا منهم من قتـــل ، وأذاقوا منهم من أذاقوه كئوس العذاب ، ثم انتهى عهدهم فيها بالخروج منها ، بقيادة « موسى » ــ عليه السلام ــ سنة ١٢٩٠ ق . م (٥) .

(١) عبد الله التل . كتابه « خطر اليهودية العالمية » ص ١١٨ ، وكان قرار طرد اليهود من أسبانيا سنة ١٤٩٢ م .
(٢) راجع « بنو إسرائيل في القرآن والسنة » للدكتور محمد طنطاوي . جـ ٢ ص ٣٣٧ .
(٣) راجع بحث الدكتور عفيف بهنسي . مجلة العربي . العـــدد ٢٦٢ .
(٤) هي منطقة « كفر الحنة » وما حولها الآن ، من أعمال الشرقية .
(٥) راجع كتاب « اليهود المغضوب عليهم » للأستاذ محمد عبد العزيز منصور .

كما تحدث القرآن والعهد :

وقد سجلت الكتب المقدسة حكمها على هذا الشعب الضليل ، ودمغته بأقذع الصفات والمثالب :

فهم أمة ملعونة كما تحدث عنهم القرآن :

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهَمْ لَعَنَّاهُمْ ، وجعلنا قُلُوبَهم قاسِيَةً) (١) .

وهم قوم ضالون ، ينفرنا القرآن منهم ، ويعلمنا في كل فاتحة نقرأها أن ندعو الله ألا نكون مثلهم : **(... غَيْرِ المغضُوبِ عَلَيهِمْ ، ولا الضَّالِّين)**

قال الرسول ﷺ : « إن المغضوب عليهم اليهود ، وإن الضالين النصارى » (٢) .

وهم طائفة مضلة : **(وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ .. الآية)**(٣) .

واليهود شعب مفسد في الأرض : **(... كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحربِ أَطْفَأَهَا الله ، وَيَسْعَوْنَ فِي الأرضِ فَساداً ، واللهُ لا يُحِبُّ المُفْسِدِين)** (٤) .

وبنو إسرائيل أمة متمردة ، كما تحدث عنهم « العهد العتيق » تنضح ما في سرائرهم من شرور على كلوحة وجوههم ، الأمر الذي نفر الدعاة منهم ، من هنا كانت توصية الله إلى « حزقيال » ألا يرتعب من فظاظة طباعهم ، وغلظ وجوههم ، فيروي أن الله نادى « حزقيال » قائلاً له : « يا ابن آدم ، قم على قدميك فأتكلم معك ، أنا مرسلك إلى بني إسرائيل . إلى أمة متمردة ! من كلامهم لا تخف ، من وجوههم لا ترتعب ، لأنهم بيت متمرد وتتكلم معهم بكلامي » (٥) .

وهم شعب عنيد « صلب الرقبة » كما تكرر وصفهم بذلك في كثير من عبارات « العهد العتيق » حتى صار ذلك الوصف شعاراً يُدمغون به طوال تاريخهم .

---

(١) سورة المائدة . الآية : ١٣ .

(٢) رواه أحمد والترمذي من حديث عدى بن حاتم . انظر تفسير ابن كثير ح ١ . ص ٢٩ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ٦٩ .

(٤) سورة المائدة . الآية : ٦٤ .

(٥) العهد العتيق . سفر حزقيال الثاني من ١ — ٨ .

ويتوعد « العهد الجديد » كهّانهم وأحبارهم ، ويكيل على رءوسهم أقذع الأوصاف وأخسها ، فيواجههم « إنجيل متى » بقول المسيح لهم : « أيها القادة العميان ! الذين يعفون عن البعوضة ويبتلعون الجمل ! ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ! لأنكم تنقون خارج الكأس والصفحة ، وهما من الداخل مملوءان اختطافا ودعارة ! ! أيها الحيات والأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ ! »(١) .

قضاء في الكتاب :

لعل في هذه اللقطات التي عرضناها من أحداث تاريخهم — من تسجيلات كتبهم المقدسة ، ومما تحدث به « القرآن » عنهم — ما يصور لنا الخلفية الدينية والتاريخية التي سنبرز في إطارها الصور التفسيرية عن إفسادهم في الأرض إفسادتين متميزتين بأنماط من الانحراف والشذوذ ، حتى صارتا جديرتين باهتمام « القرآن » بهما .

وحُقّ لنا — من بعد ذلك — أن نسلط الأضواء على تلك الحقب التاريخية ، حتى نقف على تفصيلات دقيقة — إلى حد ما — عن إفسادهم ، ثم عن الغارات التي عصفت بأجيالهم ودمرت مقدساتهم ، وعن القادة الذين هيجوا وأثيروا عليهم لتأديبهم ، لنتمكن من دراسة أحوال مدهم وجزرهم ، وعوامل انتصاراتهم وكبواتهم ، ليكون من وراء ذلك دروس للشعوب الأُخرى ، تلمح بها إشارات الإنذار الحمراء ، التي تنفرها من أسباب الانحدار والانهيار ، كما هدف « القرآن » .

هذا ، ومما ينبغي أن نلفت النظر إليه ظاهرة اتفاق « القرآن الكريم » مع كتابي « العهد » العتيق والجديد. في تسجيل الإفساد في الأرض على بني اسرائيل ، ومن أجل ذلك سنسمح لأنفسنا أن نستفيد مما ورد فيهما متفقاً أو غير متعارض مع آيات كتابنا ، على الرغم من أن مناط دراستنا سيكون في أساسه وثيق الصلة بالآيات الواردة عنهم في سورة الإسراء ، ونصها :

(وَقَضَيْنَا إلى بَني إسرائيلَ في الكتابِ لَتُفْسِدُنَّ في الأرْضِ مرَّتَيْنِ ، ولَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كبيراً) .

---

(١) انجيل متى . الاصحاح الثالث .

(فإذا جاء وَعْدُ أولاهُمَا بعثْنَا عليكم عِباداً لنَا أولي بَأسٍ شديدٍ ، فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ ، وكانَ وَعْداً مَفْعُولاً .

ثمَّ رَدَدْنَا لكُمُ الكَرَّةَ عليهم ، وَأمْدَدْنَاكُم بأموالٍ وَبَنِينَ ، وجعلْناكُمْ أكْثَرَ نَفِيراً .

إنْ أحْسَنْتُم أحسنتُمْ لِأنفسِكُمْ ، وإن أسأتُم فلَهَا ،

فَإذَا جاءَ وَعْدُ الآخرةِ ، لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ، وَلِيَدْخُلُوا المسجدَ كَمَا دَخَلُوهُ أوَّلَ مرَّةٍ ، وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً .

عسى ربُّكُم أن يَرْحَمَكُمْ ، وَإنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ، وجعلنَا جهنَّمَ للكافِرِين حَصِيراً) (١) .



محاولات تفسيرية :

حظيت آيات « القرآن » التي تحدثت عن إفسادتي بني إسرائيل باهتمام بالغ من أُمهات مراجع التفسير القديمة ، وأفسحت الموسعات لها صدر العديد من صفحاتها ، وقد جمع بعضهم فيها كل ما بلغه من آثار وأخبار ، غير مكترث إلى أن بعض هذه الآثار – لركاكته وضعفه – قد صار يعارض بعضه بعضاً ، الأمر الذي أوقع القارئ في متاهة مترامية الحدود ، لا يكاد يصل – بعد جهده وعنائه فيها – إلى الشاطئ الذي يريد ! .

وإذا كان هذا حال الموسعات القديمة ، فإن مواقف المحدثين من المفسرين لم تكن أكثر سدادا ، حيث هيمنت على الكثيرين منهم أجواء تلك الأحداث السياسية المدلهمة ، والنكسات الانهزامية ، التي ما يزال المسلمون يلعقون بسببها دماء تقهقرهم أمام قوى اليهوذيين ، ويجترون مرارة الجوع والخوف ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات .

وقد بات هؤلاء المفسرون يخشون على شباب المسلمين عواقب هذه التجربة الدامية ، أن تشل عزيمته ، أو تخور معنوياته ، أو أن يجثم على صدره شبح اليأس والقنوط ، فانبروا يفسرون الآيات . . منفعلين بتيارات الوقائع المعاصرة ، وذهبوا إلى أن مرتي إفساد بني

(١) سورة الإسراء الآيات من ٤ – ٨ .

إسرائيل ستقعان بعد البعثة المحمدية ، وأن الأُخرى منهما سيكون المسلمون فيها هم المنتصرون ، وهم بدورهم الذين سيدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة ، وهم الذين سيتبرون ما علوا تتبيرا . ! !

ولا يخالجنا أدني ريب في أن كلا من القدامى والمحدثين قد بذل وسعه ، وقدم جهد طاقته ، وألهب قلمه في الاستيعاب والبحث ، بهدف الوصول إلى مقاصد الآيات وأهدافها ، مع توفر حسن النية ، وصدق الدافع .

المنهجية في رسم الصورة التفسيرية

وبعد أن تحرقت المآقي ، وكدت الأذهان في دراسة ما أدلى به السابقون واللاحقون ، دون أن ينقع شيء من ذلك غلتنا ، أو أن يبرد منا وهج حبة القلب . . آمنت بضرورة أن نبدأ في وضع الصورة التفسيرية على أساس من خطة منهجية تعتمد أولاً على « تحديد المفاهيم » المرادة من الكلمات والتعبيرات القرآنية ، التي صيغت بها أحوال بني إسرائيل ، في علوهم وانحطاطهم ، ويحدونا في تحقيق ذلك استعمالات « القرآن الكريم » وما يقصده من تلك الكلمات والعبارات ، التي انتثر أمثالها بين طيات سورة وآياته .

وقد استبان لي بعد ممارسة هذه التجربة أن مرحلة « تحديد المفاهيم » ستقودنا إلى آفاق أخرى ، وستفتح أمامنا أبواباً ، نسلط منها الأضواء على دراسات دينية وتاريخية لابد منها ، حتى تكون صورتنا التفسيرية — بعد هذا الجهد المبذول — متماسكة الأعصاب ، مشدودة الأوصال ، وتكون أقرب إلى إصابة محز الحقيقة ، ثم لتكون أجدر من غيرها بأن تركن النفس إليها ، وتضع ثقتها فيها ، فتستقر وتثبت .

تحديد المفاهيم :

سوف لا نتعرض لجميع الكلمات الواردة في آيات « الإسراء » وإنما سنكتفي بالبعض منها ، نضعه تحت بؤرة التحديد ، بسبب كونه أساسياً في تحديد معالم الصورة التفسيرية ، ويشمل ذلك كلمات :

(قضينا — بني إسرائيل — الكتاب — لتفسدن — عبادا لنا)

وفي السطور التالية تحديد للمفهوم المراد من كل منها ، مستعينين في ذلك بالمعاجم مع تتبع ما يريده « القرآن » نفسه من معانٍ في استعمالاته المتعددة لكل لفظ منها :

١ — قضينا :

استعمل في المعاجم، وفي القرآن بمعنى : الإيجاب ، والفصل في الأمر ، ومنه قوله تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ... الآية) (١)

وقوله : (وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ) (٢) .

وقد يستعمل فيهما بمعنى : الأداء ، والإنهاء ، ومنه قوله تعالى :

(وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ) (٣)

والمراد : أدينا وأنهينا وأوحينا إليه بعاقبتهم ، لينجو بنفسه ،

وقوله : (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ)

بمعنى : أوحينا إليهم في الكتاب بما سيكون منهم من إفساد في الأرض ، حتى يحذروه ويتوقوا الوقوع في عاقبته .

٢ — بنو إسرائيل :

إسرائيل : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم — عليهم السلام — وهي كلمة عبرية مركبة من كلمتين : « إسرا » ومعناها : عبد ، أو صفوة ، و « إيل » ومعناها : الله ؛ فمعنى الكلمة عبد الله ، أو صفوة الله .

وبنو إسرائيل : أبناؤه ، وذريته التي تناسلت منهم ،

وأبناؤه اثنا عشر ولدا : ستة من زوجته « لسيئة » وهم : رأوبين ، شمعون ، لاوى ، يهوذا ، يساكر ، زبولون ، واثنان من زوجته « راحيل » وهما : يوسف ، وبنيامين ، والأربعة الباقون أنجبهم « يعقوب من جاريتي زوجتيه هاتين ؛ والاثنا عشر ولداً هم الذين صاروا من بعد أجداداً لذريته ، الذين سموا : بنو إسرائيل .

(١) سورة الإسراء . الآية ٢٣ .
(٢) سورة غافر . الآية : ٢٠ .
(٣) سورة الحجر . الآية : ٦٦ .

أما تسميتهم بـ « اليهود » فهي نسبة إلى « يهوذا » ــ أحد الأسباط ــ وهو الذي استقر الملك في ذريته من بعد وفاة « سليمان » ــ عليه السلام ــ سنة ٩٥٣ ق . م ثم اختلف ولداه من بعده على الملك ، فبايع سبطا يهوذا وبنيامين « رحبعام » ــ أحد أبنـــاء سليمان ــ فقامت بذلك مملكة « يهوذا » في الجنوب ، وعاصمتها « أورشليم » .

وأما الابن الثاني لسليمان وهو « بربعام » فأقام مملكة إسرائيل في الشمال ، وعاصمتها « شكيم » وقد قضى عليها ملك « أشور » سنة ٧٢١ ق . م ، وبسقوط مملكة « إسرائيل » في الشمال انضم شعبها إلى « يهوذا » في الجنوب ، ونسب بنو اسرائيل جميعاً إليها ، فهم اليهوذيون ، ثم توسع في المعنى المراد من اليهود حتى شملت الكلمة كل من اعتنق دينهم ، ولو لم يكن من بني اسرائيل .

أما اشتهارهم بـ « العبريين » فيرجع أمر إطلاقه عليهم إلى حادثة عبور « إبراهيم » ــ عليه السلام ــ نهر الفرات ، حيث هاجر من « حران » إلى بلاد كنعان ، وبين ذلك كتابهم العتيق ، حيث يقول : « وقال يشوع لجميع الشعب : هكذا قال الرب إله إسرائيل : في عبر النهر سكن آباؤكم منذ الدهر ... وعبدوا آلهة أخرى ، فأخذت أباكم « إبراهيم » من عبر النهر ، وسرت به في أرض كنعان »(١) .

وفي موطن آخر يقول : « قال الرب لأبرام : اذهب من أرضك ، وأرض عشيرتك إلى الأرض التي أريك ، واجتاز « أبرام » إلى أرض الكنعانيين ، مكان شكيم »(٢) .

ويهمنا هنا أن ننبه إلى أن نسبة اليهوذيين إلى « عبور إبراهيم » نسبة مختلقة ، وغير مفهومة ، ولا يدفعهم إليها إلا التحكم البغيض ، ففي تاريخهم « عبور » آخر ، هو أعظم في هوله وضخامته وإعجازه ، ذلكم هو عبور البحر ، بعـــد فرارهم من مصر أمام جنود فرعون وكان في نجاح هذا العبور الكبير إنقاذ للأُمة المتمردة بأسرها ، ولو كان قد تأخر عبور البحر أمام فرعون عن موعده الذي وقته الله له لكانت النتيجة المتوقعة هي إبادة هذا العنصر ، واستئصال شأفته من على سطح المعمورة ، فضلاً عن أنه في المعاصرة الزمنية لبني اسرائيل أشد قرباً ، وحضوراً في الذهن من عبور « أبرام » القديم لنهر « الفرات » فكان أجدر أن يلصقوا نسبتهم إليه .

(١) سفر يشوع . الاصحاح ٢٤ / ٢ وما بعدها .   (٢) المصدر السابق . الاصحاح ١٥ .

لكنهم يزعمون أنهم أولى الناس بإبراهيم ، وأنه مؤسس حركتهم الدينية ، وأنه أبو اليهود وزعيم الأُمة السامية ، ويقصدون بالساميين أنفسهم فقط ، فقد ورد في « دائرة المعارف البريطانية » عن نظرتهم إلى « إبراهيم » : « أنه لم يكن الحد الأعلى لجيل في الواقع ، بل كان مؤسساً لحركة دينية ، وكان زعيماً للأُمة السامية وقبائلها ، وهو مؤسس الديانة الإسرائيلية ، طبق رواية التوراة » (١) .

ولعله مما يفيد الاستطراد فيه أن ننبه إلى أن كل هذه المعتقدات الزائفة ، التي لا تقوم على أساس سليم تتعارض مع ما جاء في كل من « القرآن » ، و « الانجيل » فقد نفى القرآن زعمهم : أن يكون « إبراهيم » مؤسساً للديانة اليهودية ، وفي ذلك يقول :

(أمْ تَقُولُونَ : إنَّ إبراهيمَ ، وإسماعيلَ ، وإسحاقَ ، ويعقوبَ ، والْأسْبَاطَ كانُوا هُوداً أو نصارى . قُلْ : أأَنْتُمْ أعْلَمُ أمِ الله ؟ وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شهادةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ! وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عمَّا تعملون) (٢) .

ثم ينقض هذه الفكرة ، ويسم من ينادي بها بالسفه وعدم التعقل ، فيقول :

(يَا أهْلَ الكتابِ ، لِمَ تُحَاجُّونَ في إبراهيم ؟ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالإنْجِيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِهِ ! أفَلا تَعقِلُونَ) (٣) .

وينفي « القرآن » بصراحة ، لا لبس فيها ولا غموض يهودية « إبراهيم » ويبطل بذلك زعمهم فيقول :

(مَا كَانَ إبراهيمُ يَهُودِيًّا ، وَلاَ نَصْرانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسلِماً ، وَمَا كَانَ مِنَ المشرِكِينَ) (٤) .

ثم يحدد أولوية الانتساب إلى « إبراهيم » وممن تكون ؟ فيقول :

(إنَّ أوْلَى النَّاسِ بِإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ، وَهَذَا النبيّ والذين آمنوا ، وَاللهُ وَلِيُّ المؤمنين) (٥) .

---

(١) حـ ١ . ص ٦٠ . ط ٤ ، عن مجلة « البحث الإسلامي » عدد ربيع الأول ١٤٠٠ هـ .
(٢) سورة البقرة . الآية : ١٤٠ .
(٣) سورة آل عمران . الآية : ٦٥ .
(٤) سورة آل عمران . الآية : ٦٧ .
(٥) سورة آل عمران . الآية : ٦٨ .

أما « الانجيل » فيقـدم الدليل على أنهم لا يتبعون منهج « إبراهيم » ولا يعملون عمله ، وبذلك يسقط ادعاؤهم : أنه مؤسس د يانتهم الإ سرائيلية التي هم الآن عليها ، وفي ذلك يقول المسيح ــ عليه السلام ــ عندما صمم اليهود على قتله : « لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم ، ولـكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني ، وأنا إنسان قد كلمـكم بالحـق ، الذي سمعه من الله . هـذا لم يعمله إبراهيم » (١) .

من أجل ذلك ينبغي أن يكون المسلمون على حذر ويقظة عند تسميتهم بهذا الاسم « العبريين» أو « العبرانيين » لأن في استعماله اعترافاً بمعتقداتهم الزائفة في النسبة إلى « إبراهيم » تلك النسبة التي رفضها كل من القرآن ، والانجيل .

بين العبريين والغجر :

كان لاكتشاف بعض الوثائق الدبلوماسية في الحفريات التي تمت للـكشف عن آثار « تل العمارنة » في منطقة « أسيوط » أثر كبير ، في إمكان تقـديم تفسير آخر لهـذه التسمية التي أُطلقت على اليهـود .

فقد عثر على رسالة كتبها حاكم « القـدس » من قبل فرعون مصر آنذاك « رمسيس الثاني» سنة ١٤١١ ق . م يطلب فيها عوناً عسكرياً ، لمقاومة غارات « الغجر » أو « حبيرو »(٢) أي العبريين .

فكلمة « عبري » هي كلمة « حبيرو » المحرفة ، ومعناها : الغجر ، ولعلنا نجد وجوه شبه كثيرة بين السلالات الغجرية وبين اليهود ، فكلاهما مجتمع مغلق متعصب لنفسه ، يحرم التزاوج والامتزاج بالدماء الأُخرى ، ويستحل خداع الآخرين إذا ما سنحت له الفرصة ، والغاية تبرر الوسيلة عند كليهما ، ولعلنا نعثر على وجوه شبه بينهما أكثر من ذلك إذا ما توسعنا في دراسة المقارنة بين كل من الشعبين ، وقد نقل اليهود هذه التقاليد والمراسم القديمة إلى كتبهم المقدسة ، وأضفوا عليها ما جعلها تقف في صف التعاليم الدينية .

---

(١) انجيل يوحنا . الاصحاح ٨ / ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) كتاب « إسرائيل ركيزة الاستعمار » للدكتور حسن ظاظا . ص ٧٧ .

٣ ـ الكتاب :

ما هو الكتاب الذي اشتمل على بيان الله لبني إسرائيل بأنهم سيفسدون في الأرض ؟ سياق النظم القرآني في سورة « الإسراء » يحمل فيه أن يكون الكتاب المراد هنا هو « التوراة » فقد مهدت الآية التي سبقت ليتجلى هذا المراد في الذهن ، وهي قوله تعالى :

(وَآتَيْنَا مُوسى الكتابَ ، وجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي اسرائيل ... الآية)

فالكتاب هنا هو المعهود السابق .

وينبني على هذا الفهم أن يكون إعلام الله تعالى لبني اسرائيل ـ ووحيه إليهم بما يفيد إفسادهم في الأرض ـ مسجلاً في التوراة ، ومنصوصاً عليه فيها .

ولا يعكر على هذا التحديد لمفهوم « الكتاب » إلا ما ورد من قراءة لسعيد بن جبير ، وأبي العالية بلفظ الجمع (الكتب)(١) الأمر الذي يدل على أن المراد من الكتاب شامل لأكثر من التوراة ، كالانجيل مثلاً ، إذ هو من الكتب المنزلة على بني إسرائيل .

وقد يفيدنا هذا الأُفق الجديد ـ في تحديد المراد من الكتاب ـ في بيان أن « الانجيل » أيضاً قد تضمن بياناً بإفساد بني إسرائيل في الأرض ، وبما ترتب على إفسادهم ذلك من إهلاك وتتبير .

وبالتتبع والدراسة تبين أن كلا من « التوراة » و« الانجيل » ـ أو كتابي العهدين ، الموجودين بين ظهرانينا اليوم ـ قد صرح فيه بإحدى مرتي إفساد اليهود في الأرض ، وبالعذاب والتدمير الذي أعقبها .

٤ ـ لتفسدن :

الفساد : هو الانحراف عن حدود الاعتدال في النفس أو البدن (٢) ، واعتدال النفس : هو اتساقها مع فطرتها ، وفطرة النفس الإنسانية : هي التوحيد ، والإلحاد عن فطرة التوحيد في الأُلوهية والربوبية فساد .

(١) راجع « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي . حـ ١٠ ص ٢١٤ . ط بيروت ، وقد علق القرطبي في تفسيره على هذه القراءة فقال : « وقد يرد لفظ الواحد ويكون معناه الجمع ، فتكون القراءتان بمعنى واحد » .

(٢) انظر « المفردات » للراغب الاصفهاني . مادة : فسد .

وإذا تتبعنا استعمالات « القرآن الكريم » لعبارة « الإفساد في الأرض » اطمأنت نفوسنا إلى أنه يقصد بها : الحيدة والتحول عن التوحيد الحق ، بتأليه أرباب أخرى ، لا يمكن أن يقوم على وجودها وتعددها صلاح الكون ، ونظام الحياة .

ويترتب على الإفساد في ساحة الاعتقاد تحطيم للمبادئ وللقوانين ، واطراح للنظم المبنية على العقيدة الصحيحة ، فتخترق الحواجز ، وتهان المقدسات ، وتنتهك الحرمات .

ولتقرير هذا المفهوم القرآني لكلمة « الإفساد » نورد هنا بعض الأمثلة – وهي فيه كثيرة منثورة في مختلف سوره – من استعمالاته لهذا التعبير :

١ – قوله تعالى :

(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ! لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ... الآية) (١) .

فالآية تجابه الكافرين بالألوهية الحقة ، وتبين لهم بالدليل أن اعتقادهم وجود آلهة أخرى غير الله اعتقاد يترتب عليه اختلال نظام الكون ، وفساد وجود السماوات والأرض ، وما بينهما .

٢ – قوله تعالى لفرعون آنئذ أعلن إيمانه ساعة الغرق :

(الآنَ ؟ ! وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ، وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ؟ !) (٢)

إذ المراد بإفساده : عبادته للأصنام والتماثيل ، أو تأليه نفسه من دون الله ، ومجاوزته حدود الإنسانية والمبادئ الفاضلة .

٣ – قوله تعالى :

(وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ) (٣)

فتفسير الآية : لولا مواجهة المؤمنين الكافرين ومدافعتهم لئلا يعتدوا على طريق دعوة الحق ، وجهادهم بالنفس والمال والفكر ، لفسدت الأرض بظهور الشرك ، وغلبة الكفر والمعاصي ، واندثار التوحيد الحق .

---

(١) سورة الأنبياء . الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة يونس . الآية : ٩١ .

(٣) سورة البقرة . الآية : ٢٥١ .

٤ — قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ، وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ (١)

نقل « ابن كثير » عن السدى : أنها نزلت في « الأخنس بن شريق الثقفي » جاء إلى النبي ﷺ فأظهر الإسلام ، وفي باطنه خلاف ذلك » (٢) .

ولا يغيب عن أذهاننا أن الآية قد فرقت بأسلوب العطف — المقتضى للتغاير — بين الإفساد ، وبين إرتكاب المعاصي ، التي عبر عنها في الآية بإهلاك الحرث والنسل .

٥ — قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً ﴾ (٣)

فعن « أنس بن مالك » أنها نزلت في ثمانية نفر من « عكل » استاقوا إبل المدينة ، وقتلوا راعيها ، فقطعت أيديهم وأرجلهم .

قال أبو قلابة : فهؤلاء سرقوا وقتلوا ، وكفروا بعد إيمانهم ، وحاربوا الله ورسوله »(٤)

وخلاصة ما نحصله بعد تتبعنا لاستعمالات « القرآن » لتعبير « الإفساد في الأرض » : أنه الكفر بالله ، أو إشراك الأغيار من المخلوقات معه في الألوهية ، مع التخريب في الأرض بتحطيم الحدود ، والمبادئ الأخلاقية ، وعدم المبالاة بتعاليم السماء .

٥ — (عبادا لنا) :

العبـودية لله يتضمن معناها نوعين من العبادة :

أولهما : عبودية الإيجاد والخلق ، وهي صفة تضم تحت جناحيها كل البشر ، ومما يعبر عن هذا المعنى قوله تعالى :

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً ... ﴾(٥) .

(١) سورة البقرة . الآية : ٢٠٥ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ١ . ص ٢٤٥ .

(٣) سورة المائدة . الآية : ٣٣ .

(٤) تفسير ابن كثير . جـ ٢ . ص ٤٧ .

(٥) سورة مريم . الآية : ٩٣ .

والآخر : عبودية الخضوع لله ، والإيمان به ، وتطهير العبادة له ، ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى – في شأن يوسف عليه السلام – :

(كذلكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفحشاءَ ، إنَّهُ مِن عبادِنَا المخْلَصِين) . (١)

فأي هذين النوعين من العبادة ، يمكننا تحديد مفهوم التعبير الوارد في الآية به ؟

فلنتتبع إذاً استعمالات « القرآن » نفسه ، لنصل إلى تحديد هذا المفهوم من التعبير ، فمن الأمثلة على استعمال هذه الصيغة – صيغة الجمع لكلمة العباد ، مضافة إلى ضمير العظمة – قوله تعالى – في شأن موسى والخضر – :

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا ، آتَيْنَاهُ رحمةً مِنْ عِندِنَا ... الآية) (٢)

وقوله تعالى :

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِين ... الآية) (٣)

وقوله تعالى :

(واذكُرْ عِبَادَنَا : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ... الآية) (٤)

وقوله – في شأن امرأتي نوح ، ولوط – :

(كانَتَا تحت عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنَا صَالِحَيْن) (٥)

فلأول وهلة يمكننا أن نلحظ – دون مبالغة – : أن جميع آيات القرآن التي استعملت هذه الصيغة قد وضعتها في موطن يفهم منه : عبودية الخضوع والخشية لله ، وتمحيض العبادة له ، وكلها وردت فيها صيغة جمع « عباد » مضافة إلى ضمير العظمة ، دون فاصل بينهما .

وقد انفردت آيات الإسراء وحدها – التي أُثير فيها موضوع العباد المسلطين على تأديب بني اسرائيل – بصيغة متميزة ، فصل فيها بين صيغة الجمع « عباد » وبين ضمير

(١) سورة يوسف . الآية : ٢٤ .
(٢) سورة الكهف . الآية : ٦٥ .
(٣) سورة الصافات . الآية : ١٧١ .
(٤) سورة ص . الآية ٤٥ .
(٥) سورة التحريم . الآية : ١٠ .

الجلالة والعظمة بفاصل هو اللام ، يحول دون شرف انتسابهم في عبوديتهم الاعتقادية إليه ، لأنهم لا يخلصون العبادة له وحده .

الأمر الذي يشير إلى أن هذا النمط من العبودية ليس كالمثال الأول في شرف الخضوع والإيمان ، والانتساب المباشر إليه تعالى .

ولعله مما يحدونا إلى تشمم هذا الفهم الدقيق ، والإحساس المرهف به ما ورد في قوله تعالى :

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتابَ والحِكْمَةَ ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ : كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ ... الآية) (١)

فإن دقة الحس القرآني في إعجاز صياغته تشير إلى أن هذا النوع من العبادة للمخلوق مردود وباطل ، وأن دعوة المسيح لهم أن يعبدوه لم تكن ، وليست واردة على أصلها الذي ينبغي أن تكون عليه العبادة ، فمن هنا فصل الذوق القرآني بينهم وبين المسيح الذي زعموا عبادته ، وكأن شفافية القرآن تنبو عن إضافة العبادة إلى المخلوق ، لأنها لا تكون له ، وهو لم يطلبها منهم حقاً .

وإذا ما تدبرنا أسرار الحروف المرقومة في المصحف على أساس من منهج « الرسم العثماني » لخلص لنا : أن لكل حرفٍ مرسوم في المصحف سرا ، لا يسبر أغواره إلا إعمال الفكر والتأمل العميق ، حتى الحروف التي نظنها مزيدة في الرسم هي في حقيقة أمرها جاءت للدلالة على معانٍ تابعة ومكملة للمعاني الأساسية التي تضمنها النص القرآني : فكلمة الربا مثلاً رسمت في المصحف (الربوا) ورسمت بعض الكلمات الأخرى هكذا : (نبائ المرسلين) و (السماء بنيناها بأييد) و (سأوريكم دار الفاسقين) بزيادة الألف في « نبأ » والياء في « بأيد » والواو في « سأوريكم » .

قال المراكشي – بعد أن ذكر السيوطي مجموعة من هذه الزيادات – : « وإنما زيدت هذه الأحرف في هذه الكلمات نحو « جائ » و« نبائ » ونحوهما ؛ للتهويل والتفخيم والتهديد

(١) سورة آل عمران . الآية : ٧٩ .

والوعيد ، كما زيدت في « بأييد » تعظيماً لقوة الله تعالى ، التي بنى بها السماء ، التي لا تشابهها قوة »(١) .

ويغلب على ظني الآن أنه قد وضح لنا أن لكل حرف في « القرآن » دلالة ومعنى مقصوداً ، سواء أكان هذا الحرف في النص الأصلي الملفوظ ، أم كان في الرسم العثماني فقط .

ومن أجل ذلك حق لنا أن نستشف فرقاً واضحاً في المفاهيم القرآنية ، إذا ما اختلف أسلوب صوغها ، واستغلت حاسة الاستشعار البلاغي عند العرب أعظم استغلال ، في سكب المعاني اللطيفة داخل قوالب الحروف ، اعتماداً على حيوية الإحساس البلاغي ، ويقظته لديهم .

والنتيجة المستخلصة من بعد هذا البيان : أن تعبير القرآن في : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ مثلا هو تعبير عن نوعية خاصة من العباد ، المشرفين بإضافة انتسابهم إلى ربهم العظيم ، وتعبيره الآخر في : ﴿ بعثنا عليهم عبادا لنا ﴾ تعبير مختلف في الصياغة عن التعبير الأول ، ويشير إلى نوعية أخرى من العباد ، متنائية ومختلفة عن النوعية المقربة ، فهناك حاجز يحول بينهم وبين ما ينبغي أن يشرفوا بالإضافة إليه ، فهم إذا صنف مختلف ، وهم من غير المؤمنين .

ولعل مما يمكن أن نستأنس به في هذا المقام ما ورد من قراءة « زيد بن علي » ﴿ عبيدا لنا ﴾(٢) إذ أن صيغة هذا الجمع للكلمة ليست مباشرة في الدلالة على الإيمان بالله ، وإخلاص العبادة له ، فهم عبيد بالإيجاد والخلق ، وبذلك تكون مفسرة للمراد .

وفضلاً عن ذلك ، فإن ما توصلنا إليه في هذا الصدد تؤيده الأحداث التاريخية ، وما ورد عن إفساد اليهود في أسفارهم وتلمودهم ، وكتاب عهدهم الجديد .

وبذلك تتفق إشارات « القرآن » وقراءاته مع ما ورد في كتب العهدين ، ومع وقائع التاريخ .

(١) انظر « الاتقان في علوم القرآن » للسيوطي ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم . حـ ٤ . ص ١٥١ .
(٢) تفسير أبي السعود . حـ ٥ . ص ١٥٦ .

نتيجة مرحلة تحديد المفاهيم :

سنتخذ من نتائج الدراسات التي أسلفناها في مرحلة « تحديد المفاهيم » معالم على الطريق ، على ضوئها نرجو أن نتوصل إلى الرأي الصواب في تحديد إفسادتي بني إسرائيل والإدلاء ببيانات أكثر تفصيلا في شأن العقوبات التي حاقت بهم ، ويمكننا أن نلخص تلك النتائج في أسس أربعة هي :

١ – أن إفسادتي بني إسرائيل قد أوحى بهما إليهم في كتبهم المنزلة عليهم ، ليتجنبوا خطر المروق عن التوحيد ، والتخريب في الأرض بعد إعمارها ، ولكنهم لم يأبهوا لذلك .

٢ – أن المراد بـ « الكتاب » ما يفيد معنى الجمع ، فليس ذكر إفسادهم مقصوراً على التوراة ، بل ذكر كذلك في غيرها من كتبهم .

٣ – أن مفهوم الإفساد في الأرض ليس فقط ارتكاب الموبقات ، بل هو تعبير يراد به مع ذلك : الزيغ عن التوحيد الخالص ، والإشراك في العبودية ، أو الارتداد إلى الوثنية ، المستتبع لاطراح الشريعة ، وتأليه الهوى والشهوات .

٤ – وأن العباد المسلطين عليهم لقهرهم وإبادتهم ليسوا في شرف الانتساب والإضافة إلى ساحة الألوهية ، ولكنهم مفصولون عن ذلك ، فهم وإن كانوا غير مؤمنين ولا موحدين لكنهم مع ذلك عباد الله ، بمقتضى خلقهم وإيجادهم .

مقاصد القرآن من الإبهام :

لعله مما يحسن بنا – قبل أن ندلف إلى استغلال هذه النتائج في بناء الصورة التفسيرية – أن نلفت الأنظار إلى حقيقة مقررة ، هي : أن القرآن كتاب هداية للعالمين ومنهجه في ذلك أن يعرض للقصص أو للأحداث بطريقته الخاصة ، وبأسلوبه المتميز ، يقرب به الحقائق إلى متناول العقول ، بهدف ارتشاف العظة ، واستلهام نواميس الحياة ، والتعرف على القوانين الكونية والاجتماعية ، لكي تسعد الإنسانية بتوافقها معها ، في حياتها الدنيا والآخرة .

فإذا اتجه القرآن إلى إبهام بعض الأسماء أو المواقع أو التواريخ في أنبائه وقصصه فليس ذلك إلا لأنها لا تمس الأهداف القرآنية التي يقصد إليها ، وحتى لا يشغل الأذهان باهتمامات

جانبية ، تنأى بها عن التركيز والتوجه المباشر إلى المقصود والتقاط العبرة ، واستيعاب الدرس.

إلا أننا مع مراعاتنا لهذا المنهج القرآني . . لا نرى بأساً من أن نسلط الأضواء على بعض الجوانب التاريخية ، علها بذلك تزداد في الأذهان تألقاً ووضوحا ، لا على إعتبار توقف التعرف على الصور التفسيرية لآيات القرآن عليها ، بل للاستئناس والعلم بما قد تدلى به من بيانات ، تكون متفقة مع مضامين الآيات .

مواقف المفسرين :

في ساحات المفسرين القدامى ، وفيما حواه تراثهم العريق من آراء ثرة . . سنخوض في لجج متلاطمة ، وأمواج متضاربة من الاحتمالات ، لا يكاد المرء يرسل ناظريه ليتأمل فيها حتى يصاب بدوار اليأس والقنوط ، لما يتبدى له من عسر الوصول إلى الحقيقة .

فظاهرة عرض الآراء ، ثم تكذيبها أو تضعيفها نجدها بادية واضحة في معالجتهم بيان مرتي إفساد بني اسرائيل في الأرض ، وبعضهم يلجأ إلى اختيار الرأي وترجيحه دون أن يقدم لنا ما يفسر موقفه ، وأحيانا يذكر المفسر بعض المبررات التي لا تكون كافية في إشباع قناعة العقل بها .

ولتوضيح ذلك نقدم في السطور التالية نموذجاً من كتاب « عناية القاضي وكفاية الراضي » :

ففي شرح « شهاب الدين الخفاجي »(١) على تفسير « البيضاوى » ـ ذكـر في بيانه مرتي الإ فساد ـ أن :

أولاهما : مخالفة أحكام التوراة ، وقتل أشعياء .

وثانيتهما : قتل زكريا ويحيي ، وقصد قتل عيسى .

وبين عقابهم على المرة الأولى بقوله : بعثنا عليكم « بختنصر » ـ عامل لهراسف على بابل ـ وقيل : جالوت الجزرى ، وقيل : سنحاريب ـ من أهـل نينوى ـ .

وأوضح « الشهاب » أن « شعياء » نبي بعد « موسى » هرب منهم إلى شجرة ، فاختبأ في جوف ساقها ، فضمت عليه ، فنشروها وقتلوه .

وقيل : إنه أرميا . وقيل : أرميا لم يثبت قتله ، والذي وقع في « الكشف » حبسه .

(١) راجع « عناية القاضي و كفاية الراضي » المشهور باسم « حاشية الشهاب » حـ ٦ ص ١٠ .

وقيل : إنه الخضر – عليه السلام – وإن نظر فيه ! فإنه صاحب موسى .

ثم يعلق « الشهاب » على قتل زكريا ، ويحيي ، في الإفسادة الثانية ، فيقول : في تفسير القرطبي : أن زكريا مات بأجله ولم يقتل ، فلذا قيل : الأولى الاقتصار على يحيي .

وذكر في « الكشاف » قتل زكريا بما وقع في المرة الأولى ، وضم إليه حبس « أرميا » وذكر قتل « يحيي » في المرة الثانية .

قال في « الكشف » : هذا فيمن جعل هلاك زكريا قبل يحيي ، وأرميا كان في زمن بختنصر وبينه وبين زكريا أكثر من مائتي سنة .

وأما في المرة الثانية ، فاختلف في المبعوث عليهم ، وأن ذلك كان بسبب قتل يحيي بن زكريا ، وكان قتله ملك من بني إسرائيل ، والحامل على قتله امرأة اسمها « أزبيد » قتلت سبعة من الأنبياء ...

وقيل : إن المبعوث عليهم « بختنصر »(١) وهذا لا يصح ، لأن قتل يحيي كان بعد رفع عيسى ، وبختنصر كان قبل عيسى بزمن طويل .

وقيل : الاسكندر ، وبين الاسكندر وعيسى نحو ثلاثمائة سنة .



ولعلنا من أول وهلة ندرك مدى الحيرة التي يقع فيها المفسرون عند بيانهم لمرتي الإفساد وعند تحديدهم للغزاة المسلطين على بني إسرائيل :

فهل كانت الإفسادة الأولى بسبب قتل « شعياء » ؟ أو « أرميا » الذي لم يثبت قتله ؟ أو كانت بقتل الخضر ، وهو صاحب موسى ؟

وهل وقعت واقعة اليهود على يد « بختنصر » ؟ أو على يد « جالوت » ؟ أو « سنحاريب »؟ ترديدات سردت دون ذكر مبررات ! ! .

ثم هل كان قتل زكريا في المرة الثانية ، أو في المرة الأولى ؟ أو أنه لم يقتل بل مات بأجله ؟ وهل كان قتل « أرميا » في الأولى ، أو حبس في الثانية ؟

---

(١) قيل : معناه « بوخت » أي ابن ، و« نصر » اسم صنم نسب إليه ، حيث لم يعرف له أب ، ويسمى كذلك : « نبوخذ نصر » .

وهل كان الغزاة في المرة الأولى بقيادة « بختنصر » ؟ أو كان ذلك في المرة الثانية ؟ كل هذه الترديدات تحتاج إلى أدلة مقنعة للعقل ، ليقبل منها ما يصح .

لكن « الشهاب » ترك قارئه تائهاً في وسط هذا الضباب ، ثم تسلل منسحباً في هدوء !

وإننا لنجد مثل هذه الظاهرة — من السرد والتضارب ، والترديد بين الغث والهزيل المعروض ، مع الحيرة وعدم الثقة عند مواجهة التحديد — طابعاً عاماً سائداً في كثير من الموسعات(١) .

مراحل إفساد اليهــود

في نور آيات القرآن ، وفيما ورد موافقاً لها في كل من كتابي العهد القديم والجديد والتلمود ، وفيما تضمنته كتب التاريخ من أنباء كبوات اليهود وانتصاراتهم . . سنعرض في السطور التالية لأربع مراحل من تاريخ إفسادهم في الأرض ، رأينا أن آراء العلماء والمفسرين تكاد تتمركز حولها وتدندن .

كما سنعرض لبعضها بالنقـــد القائم على الدليل ، حتى يتضح لنا ما يمكن أن يتم به رسم الصورتين التفسيريتين لإ فسادهم ، والتنكيل والتخريب الذي حل بهم جزاء ما ارتكبوه :

١ — مرحلة ما بعد يوشع :

عبر « يوشع » ببني إسرائيل نهر الأردن إلى فلسطين « وضرب جميع أرض الجبل والجنوب ، والسهل والسفوح ، وجميع ملوكها ، وأبسل — أهلك — كل نسمة ... ولم يبق منهم باقية ، فضربهم من قادش إلى غزة ، وانتصر عليهم » (٢) .

ومن بعده انحرف بنو إسرائيل عن التوحيد الخالص ، وانتشرت الرذائل ، وتفشت المنكرات ، وفسدت نساؤهم ، وعم الزنى ، وعبدوا الأصنام ، وقتلوا الصالحين .

(١) راجع « الجامع لأحكام القــرآن » للقرطبي حـ ١٠ ص ٢١٥ ، و « روح المعاني » للألوسي جـ ١٥ ص ١٦ وما بعدها ، و« جامع البيان » للطبري حـ ١٥ ص ١٧ .

(٢) كتاب العهــد القديم . سفر يشوع . الاصحاحات : ١ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ .

ولندع كتابهم المقدس يصور لنا أحوالهم ، في تلك الحقبة من تاريخهم ، فيقول : « وقام من بعدهم — أي من بعد جيل يوشع — جيل آخر ، لم يعرف الرب ، ولا العمل الذي عمله لإسرائيل . .

« وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب ، وعبدوا البعليم ، وتركوا عبادة الرب ، إله آبائهم ، الذي أخرجهم من مصر ، وساروا وراء آلهة أُخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم ، وسجدوا لها ، تركوا الرب ، وعبدوا البعل وعشتاروت ... » (١) .

حتّى يقول : « فحمى غضب الرب على إسرائيل ، فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم ، بيد أعدائهم حولهم ، ولم يقدروا على الوقوف أمام أعدائهم ، حيثما خرجوا كانت يد الرب عليهم للشر ... » حتّى يقول : « من أجل أن هذا الشعب قد تعدوا عهدي الذي أوصيت به آباءهم ، ولم يسمعوا لندائي » (٢) .

ولعله قد صار من البين لدينا أن « سفر القضاة » قد ركز الأضواء في بيان إفساد بني إسرائيل على تركهم عبادة الرب الذي أنقذهم من استعباد المصريين لهم ، وعلى فعلهم الشر ، بتوجههم إلى عبادة آلهة أُخرى كالبعليم ، وعشتاروت وغيرهما من آلهة الشعوب التي كانت حولهم .

ويعرض الاصحاح الثالث من هذا السفر بياناً مفصلاً عن الأُمم المعادية لبني إسرائيل ، والملوك الذين سلطهم الله على شعب بني إسرائيل ، للتنكيل بهم ، فيقول : « .. فلأنهم سكنوا وسط الكنعانيين والحثيين ، والأموريين ، والفرزيين ، والحويين ، واليبوسيين ، وعايشوهم وعبدوا أصنامهم كالبعليم والسواري ، سلط الله عليهم « كوشان » — ملك آرام النهرين — فاستبعدوهم ثماني سنين ، ثم هيج عليهم « عجلون » — ملك مؤاب — فضربهم بشدة ، بمساعدة بني عمون والعماليق ، وظلوا تحت عبوديته ثماني عشرة سنة » .

(١) البعل : هو معبود ذكر للفينيقيين والكنعانيين ، ويراد به : الشمس أو المشترى ، وعشتاروت معبودتهم الأنثى ؛ ويراد بها : القمر أو الزهرة ، وعبادة البعل قديمة جداً في الموابيين والمديانيين ، وكانوا يعبدونه أيام « موسى » وظلت عبادته منتشرة بين بني إسرائيل حتّى أيام صموئيل . (دائرة المعارف الإسلامية حـ ٥ . مادة بعل) .

(٢) العهد القديم . سفر القضاة . الاصحاح الثاني .

ويواصل السفر في إصحاحه السادس بيانه عن العباد الذين سلطوا عليهم ، فيذكر أن الله أخضعهم لإ ذلال « مديان » فنكل بهم بقسوة ، حتى فروا إلى كهوف الجبال والمغارات وكان المديانيون لا يتركون لهم من حاصلاتهم حتى قوت يومهم ، ويسلبون أبقارهم وحميرهم ، وكانوا إذا دخلوا عليهم – خربوا ديارهم ، وأذلوهم ذلاً شديداً .

ويذكر الاصحاح العاشر : أن الله سلط عليهم بني عمون والفلسطينيين فاستعبدوهم ثماني عشرة سنة ، بسبب انحرافهم وعبادتهم الأصنام .

وينص الاصحاح الثالث عشر على : أن الفلسطينيين أذلوهم ، واستعبدوهم بعد ذلك أربعين سنة أخرى .

حتى صرخوا للرب قائلين : « أخطأنا إليك ! ! لأننا تركنا إلهنا ، وعبدنا آلهة أخرى ، فخلصهم الرب ... » .

قصة الخلاص :

وقصة خلاصهم من استعباد الملوك والشعوب المحيطة بهم من حولهم – وكما يصورها القرآن الكريم وكتب العهد – تعني ملاحم الحرب الضروس ، والمعارك التي دارت رحاها بين بني إسرائيل بقيادة « طالوت » وبين جيوش العمونيين بقيادة « جالوت » أو « جليات » – كما تسميه أسفار العهد القديم – التي وقعت في القرن الحادي عشر ق . م تقريباً ، في شرق الأردن (١) .

وتم ذلك بعد أن ثابوا إلى رشدهم ، ورجعوا إلى الله ، وذهبوا إلى نبي لهم هو « شمويل » أو « اسماعيل » وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكاً ، يحاربون تحت لوائه أعداءهم الذين أذلوهم ، فأخبرهم بأن الله اختار لهم « طالوت » ملكاً عليهم – لقوته وعلمه – وإن لم يكن من اللاويين – سبط النبوة – ولا من اليهوذيين – سبط الملك – فاجتمعوا عليه ، وعبرت القلة المؤمنة معه النهر ، وقاتلوا معه ، فانتصرت القلة التي عدلت مسار إيمانها ، وصححت انحرافها ، ورجعت إلى عبادة الله وحده .

---

(١) راجع « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي جـ ٣ . ص ٢٥١ ، وجامع البيان للطبري . جـ ٢ ، والبحر المحيط لأبي حيان . جـ ٢ ص ٣٧٥ .

وظهر في غبار المعارك « داود » كبطل من أبطال النصر ، الذي لم يلبث أن اختلف مع « طالوت » فترك المعارك وهاجر إلى أرض الفلسطينيين ، وظل فيها حتى قتل « طالوت » فقادها داود من بعده ، ثم حارب « اليبوسيين » في هضبة جبل « موريا » أو هضبة « القدس » ثم خلفه ابنه « سليمان » .



نظرات ... ونظرات :

يكاد يتفق هذا العرض التاريخي لتلك المرحلة من حياة بني اسرائيل مع نتائج الدراسة التي أسلفناها بهدف « تحديد المفاهيم » .

فخصائص « الإفساد في الأرض » قد توفرت فيها بالصورة المعينة التي يقصد إليها « القرآن الكريم » في استعمالاته ، فقد انحرفوا في العبادة ، وتركوا ربهم ، وعبدوا آلهة أخرى كاالشمس والقمر والنجوم ، وأنصابا أخرى كانت تقدسها الشعوب الوثنية المحيطة بهم ، الأمر الذي ترتب عليه اطراحهم تعاليم دينهم ، وزيغهم إلى الشهوات ، فتعدوا على الحقوق وتخطوا الحدود ، وانتهكوا الحرمات ، وانهارت المعنويات في مجتمعهم .

من هنا تعتبر « أسفار العهد » أن هذه المرحلة الوثنية في حياتهم الاعتقادية ــ وما أعقبها من تنكيل وتعذيب ــ مرحلة واحدة ، أو كما يعبر عنها « القرآن » : مرة واحدة من مرتي إفسادهم ، وإن كان الله قد هيج عليهم عبادا له ، من قادة الجيوش وملوك الشعوب . . . أذلوهم ، وردوا إليهم عقولهم ، ليثوبوا إليه .

فكلمة **(عبادا لنا)** في الآية الكريمة تتفق في صيغة جمعها مع ما ورد من تفصيلات ذكرها سفر « القضاة » بين فيها أسماء الملوك والقادة والأمم التي تتابع تسليطهم عليهم واحداً بعد الآخر ، لينكلوا بهم ، ويخربوا ديارهم .

ولما أنابوا إلى الله معترفين بخطئهم ، ولجأوا إلى ساحة الألوهية ، وطلبوا من نبيهم أن يرشدهم إلى طريق الخلاص ، وأن ينصب عليهم ملكاً ، يقود معركة جهادهم تحت لواء التوحيد والإيمان الخالص نصرهم الله ، على الرغم من قلة عدد المجاهدين .

يصور ذلك « القرآن » في قوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلأِ مِنْ بَنِي إسرائيلَ – من بعد موسى – إِذْ قالُوا لِنَبِي لَهُمْ : ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً ، نُقَاتِلْ فِي سبيلِ الله) حتى يقول : (وقال لهم نَبِيُّهُم : إنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لكم طالوتَ مَلِكاً) ثم يصور « القران » المحنة التي امتحنوا بها ، فيقول :

(فلَمَّا فصَلَ طالوتُ بِالجنودِ قال : إنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهرٍ ، فَمَنْ شَرِبَ منه فَلَيْسَ مِنِّي ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَن اغْتَرفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فشربُوا مِنْهُ إِلَّا قليلاً مِنْهم ...)

ويكشف « القرآن » قوة إيمان الصفوة القليلة لحظة لقاء الأعداء ، فيقول :

(وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وجنودِهِ ، قالُوا : رَبَّنَا أفرِغْ علينا صَبْراً ، وَثَبِّتْ أقدَامَنَا ، وَانْصُرنا عَلَى القَوْمِ الكافرين ، فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ الله ، وقتل دَاوُدُ جَالوتَ ...) (١)

ثم كانت نصرتهم على الشعوب المناوئة لهم ، بعودة الغلبة إليهم ، وقيام دولتهم في عصر « طالوت » واستمرارها في عصر « داود » و « سليمان » اللذين أمدهما الله بالخير الوفير ، والقوة والسطوة .

ويصور « القرآن » عودة ريحهم في هذه العصور ، فيقول في شأن حكم داود :

(إنَّا سَخَّرْنَا الجبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشرَاقِ ، والطيرَ مَحْشُورَةً كُلٌ لَهُ أَوَّابٌ ، وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ، وَآتَيْنَاهُ الحِكمةَ ، وَفَصْلَ الخِطَابِ) (٢)

كما يتحدث عن مدى قوة « سليمان » فيقول :

(وَلِسُليمانَ الرِّيحَ ، غُدُوُّهَا شَهْرٌ ، وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ ، وَمِنَ الجنِّ مَنْ يَعملُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنهم عن أمرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عذابِ السَّعِيرِ . يعملون له ما يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ ، وتماثيل ، وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ ، وَقُدُورٍ رَاسِياتٍ ...) (٣) .

(١) الآيات من سورة البقرة . من ٢٤٦ – ٢٥١ .

(٢) سورة ص . الآيتان : ١٩ ، ٢٠ .

(٣) سورة سبأ . الآيات من ١٠ – ١٣ .

وعن قوة سليمان العسكرية وجنوده يقول القرآن :

﴿ وَوَرِثَ سليمانُ داودَ ، وقال : يأيها الناسُ ، عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيرِ ، وأوتِينَا مِنْ كلِّ شيء . إنَّ هذا لَهُوَ الفضْلُ المبِين ، وَحُشِرَ لسليمانَ جُنُودُهُ مِنَ الجنِ والإنسِ والطَّيرِ ، فَهُمْ يُوزَعَونَ ﴾ (١) .

فذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لكم الكَرَّةَ عليهم ، وأَمْدَدْنَاكُم بأَمْوالٍ وبَنِين ، وجَعَلناكُم أكْثَر نَفيراً ﴾ .

ويغلب على الظن أن هذا الوضوح في رؤية الأحداث في تلك الحقبة من تاريخهم هو الذي حدا بكثير من المفسرين إلى أن يميلوا إلى إعتبار هذه المرحلة هي المرة الأولى من إفسادهم.



إلا أنه مما يعكر على هذا الاتجاه هو انتفاء بعض الخصائص والشروط ، التي ينبغي تحققها ، لتكون الصورة التفسيرية مكتملة الجوانب ، ومن ذلك :

١ - سجل « القرآن » أن من خصائص كل من المرتين ، ومن الظواهر البادية فيهما تكبر اليهـود ، وتعاليهم عن الناس : ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كبيراً ﴾ وينبئ هذا الوصف عن تسلطهم وتجبرهم ، والاستهانة بمن حولهم من الشعوب ، وغمطهم حقوقهم ، وقد أكد النص هذه المعاني بعدة مؤكدات ، ليشمل كل ما يخطر بالذهن من أنماط التعالي .

ولم تتجل هذه الظاهرة فيما أسلفناه من تاريخهم ، مما يمكن أن يعتبره البعض المرة الأولى لإفسادهم ، بل قد ثبت تاريخياً أنهم تميعوا في المحيط البشري المحدق بهم وأخذوا زوجات لأبنائهم من بنات الوثنيين ، ولبناتهم أزواجاً من أبنائهم ، على الرغم من تكرر النهي عن ذلك في كتبهم : « استحلفك بالرب إله السماء ، وإله الأرض ألا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين ، الذين أنا ساكن بينهم ، بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحاق » (٢) .

(١) سورة النحل . الآيات من ١٥ - ١٧ .

(٢) العهد القديم . سفر التكوين : ٣/٢٤ ، ٤

وهم لم يكتفوا بهذا التسيب والانمياع فيمن حولهم ، بل فضلوا آلهة الشعوب على عبادة إلـههم الواحد ، وقد أوردنا كثيراً من شواهد الأسفار على ذلك .

وإذاً ، فلم تكن تلك الحقبة من مراحل إفسادهم مقترنة بخصائص الإفسادتين الكبريين

٢ — تبين آيات « القرآن » أن عقوبتهم في الإفسادة الأُخرى ستقترن بتخريب المسجد « هيكل سليمان » ودخوله دخول غزو ، فهو إذ يتحدث عن أحوال المسلطين عليهم يقول : **(وَلِيَدْخُلُوا المسجدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ) .**

ومعنى هذا التعبير أن دخول المهاجمين إلى الهيكل سيكون مماثلاً لما قاموا به من انتهاكات وتخريبات في المرة الأولى ، ففي الإفسادة الأولى إذاً سيكون هناك « هيكل » موجود ، وسيدخله الغزاة الذين لا يؤمنون به كمركز للإيمان ، وماذا ينتظره العقل بعد ذلك سوى تخريبهم وتحطيمهم لـه .

والمؤرخون على أن الهيكل قد بني في عهد سليمان ، وهي فترة زمنية متأخرة عن الحقبة التي كان فيها بنو إسرائيل خاضعين لسيطرة من حولهم من الوثنيين كالعماليق ، والحثيين والكنعانيين وغيرهم .

الأمر الذي يبعد عن أذهاننا أن يكون « القرآن » قد اعتبر هذه المرحلة التي أسلفناها إحدى مرات إفسادهم في الأرض .

وليس معنى هذه النتيجة التي انتهينا إليها ألا ندخل في إعتبارنا أن يكون ذلك من إفسادهم في الأرض ، بل هو فعلاً من أنواع إفسادهم التي أكثروا من الوقوع فيها ، غير أن « القرآن » يتحدث عن إفسادتين من نوعية خاصة ، هما أشد وأفظع ما وقع فيه بنو إسرائيل من إفساد ومحن .

شبهة مردودة :

يحاول بعض العلماء أن يلجئوا إلى التأويل ، ليسلم لهم إعتبار أن المرحلة الأولى هي الإفسادة الأولى ، المقصودة من الآيات ، ويقدمون في ذلك حديث « أبي ذر » ونصه : « سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أي ؟

قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عاماً ... الحديث » (١) .

وحديثاً آخر : أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله ثلاثاً : سأله حكماً يصادف حكمه فأوتيه ، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه ، وسأله — حين فرغ من بنائه — ألا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أُمه ، فأوتيه » (٢) .

فإذا علمنا أن المسافة الزمنية بين إبراهيم وسليمان تزيد على ألف عام ، وليست أربعين . وأن إبراهيم لم يؤسس « المسجد الحرام » وإنما رفعه على أُسس وقواعد كانت موجودة من قبل ، مطمورة تحت ربوة عالية بجوار دوحة على موضع زمزم ، كما وردت بذلك الأحاديث

وكما يقول تعالى : (وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البيتِ وَإِسماعيلُ ... الآية) (٣)

كل هذا يحملنا على أن نعترف بأن كلاً من إبراهيم وسليمان لم يبتدئا بناء المسجدين وإنما كان عملهما معتمداً على أُسس كانت موجودة من قبل عصرهما .

وإذاً فالمسجد الأقصى كان موجوداً أثناء حروب الكنعانيين ضد بني إسرائيل ، وهو وإن لم يكن مبنياً وقائماً ، إلا أنهم يؤولون دخولهم فيه بالاستيلاء على مكانه .

والحقيقة أنهم بسلوكهم هذا المنعطف يكونون قد تخلوا عن الأخذ بظاهر نص « القرآن » واللجوء إلى التأويل ، دون مبرر يضطرهم إلى ذلك ، فقد صور « القرآن » الغزاة وهم يدخلون المسجد في المرة الثانية لتخريبه وهدمه — حيث كان قائماً آنذاك — بصورة تمثيلية جعل فيها أحوال دخولهم فيه أول مرة « مشبها به » ومعروف أن « المشبه به » يكون على صفات وخصائص أوفى وأكمل فيه ، منها لدى المشبه .

وبناء على ذلك ، فينبغي لنا أن نعترف بأن المرة الأولى من إفسادهم كان فيها « الهيكل » قائماً .

والمحققون من المفسرين على أنه لا يتسنى إطراح ما تدل عليه ظواهر النصوص القرآنية ، والعدول إلى تأويلها بمعان أُخرى بعيدة المنال ، ما لم تكن هناك عقبات أو استحالات تحول

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه . راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي . حـ ٤ . ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٢) المصدر السابق . (٣) سورة البقرة . الآية ١٢٧ .

دون تقبل المعاني المستفادة من ظواهر النصوص ، ولا نكون هنا مضطرين إلى التخلي عن الظواهر واللجوء إلى التأويل إلا إذا تحتم علينا إعتبار أن تكون هذه المرحلة من الأحداث هي المرة الأولى من الإفساد ، ولا ضرورة تلجئنا إلى ذلك ، حيث سنقدم من نماذج إفسادهم ما هو أشد وأفظع من هذه ، وأكمل في الاشتمال على جميع الخصائص والصفات التي حددت بها الإ فسادة الأولى .

فلا حرج علينا بعدُ أن نعرض عن قبول هذه المرحلة ، كتفسير للإفسادة الأولى من إفسادتي بني إسرائيل في الأرض .



٢ ـ مرحلة ما بعد البعثة :

أصحاب هذا الاتجاه في التفسير من العلماء الذين حز في نفوسهم ما يلاقيه المسلمون والعرب من نكسات ، ومن هزائم متلاحقة إذا ما واجهوا اليهود في معارك حامية ، وخشوا مغبة تكرر تقهقرهم واندحارهم أمام الاكتساح اليهودي ، ولعلهم قد اهتموا بخطر أن يترسب هذا العجز في نفوس المؤمنين ، فتتقاعس هممهم ، وتفتر عزائمهم ويتبلدوا على قبول ما هم فيه من تحطم وذلة وهوان .

من أجل ذلك بعثوا أقلامهم لاستنهاض ما خمد من النفوس ، وأثاروها وأعادوا الثقة إليها ، حتى تبقى على أهبة الاستعداد إذا ما دعا الداعي .

وعلى الرغم من أنهم يستحقون منا الثناء على حسن نيتهم ، إلا أنه ينبغي أن نسجل هنا أن تنبوآتهم التي ضمنوها صورتهم التفسيرية ، وألصقوها بتفسير القرآن قد ظهر خطؤها بهزيمتنا في معركة ١٩٦٧ .

ويتلخص تصوير هؤلاء العلماء المحدثين لمرتي إفساد بني إسرائيل وزمنهما في أنهما تقعان بعد البعثة المحمدية ، وأن المـرة الأولى منهما ـ في زعمهم ـ تنطبق تمام الانطباق على الدور الذي قاموا به على عهد النبي ﷺ وما عاقبهم الله عليه ، بأن سلط عليهم جيوش

المسلمين ، فقد نقضوا عهد رسول الله ، الذي عاهدهم عليه ، مطلع وصوله إلى المدينة ، على أن تكون بينهم النصرة ، وأنهم على من حارب أهل هذا العهد ، أو داهم « يثرب » .

لكنهم – على الرغم من هذه الرعاية والمصافاة – انطلقوا بالبغي والمكر والفساد في الأرض ، يشككون في نبوته ، ونزاهته ورسالته ، ويفتحون صدورهم لأعدائه ، ويدلونهم على عورات المؤمنين ، وهموا بقتل الرسول ، ونقضوا العهد يوم الأحزاب .

فسلط الله عليهم عباده المؤمنين ، فأجلوْا « بني النضير » وقتلوا « بني قريظة » وفتحوا خيبر ، فهذه عندهم هي المرة الأولى من الإفساد ، وعقابها .

ثم رد الله لليهود الكرة على المسلمين بعد ألف وثلاثمائة ونيف وسبعين سنة من تأديبهم على إفسادهم الأول ، وأمدهم بأموال تتدفق عليهم من هنا هناك ، ومن بنين مهاجرين إلى « إسرائيل » من خبراء روسيا وألمانيا وغيرهم ، ومن عدة وعتاد متقدم ، لا تحصل عليه دولة إسلامية تواجهها ، ومن مناصرين من شتى المذاهب والنحل ، لكنهم سوف لا يشكرون هذه النعم ، وسيعاودون الإفساد في الأرض ، وسيأتي بعد ذلك دورنا المرتقب حيث يهيجنا الله عليهم من جديد ، فيخزيهم بأيدينا ، وينصرنا عليهم ، ويشفي صدور قوم مؤمنين .

هذا موجز تصويرهم لمرتي الإفساد اليهودي في الأرض (١) .

وقد كفانا جهد مناقشة هذه الصورة التفسيرية ، وبيان تهافتها الدكتور « محمد طنطاوي(٢) وكان من بين ما وجهه إليها من سهام النقد قوله :

١ – إن أصحاب هذا الاتجاه قد فسروا (الكتاب) في الآيات بالقرآن ، وهذا التأويل يتعارض مع سياق النص ، فكيف أوحى الله إلى بني إسرائيل في القرآن ؟

وقد سبق أن كتاب بني إسرائيل هو ما أوتي موسى من قبل :

﴿ وَآتَيْنَا موسى الكتابَ ، وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إسرائيلَ ﴾ .

(١) نشرت هذه التصورات في مستهل حركة الاستعدادات العربية لملاقاة اليهود ، وجاءت كتاباتهم كوقود لتقوية الروح المعنوية لدى جيوش دول المواجهة عام ١٩٦٧ .

(٢) كتابه « بنو إسرائيل في الكتاب والسنة » حـ ٢ . ص ٣٨٤ وما بعدها .

٢ – وإنهم فسروا الأرض في : (**لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ**) بأرض المدينة وما حولها ، وهي ساحة المعارك التي دارت بين الرسول والمؤمنين في مواجهة اليهود ، والمفسرون على أنها أرض الشام ، التي كان يسكنها اليهود .

ذلك لأن المؤرخين على أن انتشار اليهود في أرض العرب قد حدث بعد وقوع النكبات بهم ، وطردهم من مساكنهم زمان « بختنصر » ، و « تيتوس » الروماني .

وبذلك تنهار هذه الصورة الخيالية التي علقت بأذهان البعض ، لحاجة في نفس يعقوب !



مرحلة إفساد الملوك المتأخرين :

ما إن توفي « سليمان » – عليه السلام – حتى تنازع أبناؤه من بعده السلطة والحكم ، فانقسمت مملكته إلى قسمين : صار أحدهما : مملكة « يهوذا » وملكها ابنه « رحبعام » وعاصمتها « أورشليم » والأُخرى « إسرائيل » وملكها « بربعام » وعاصمتها « شكيم » .

وقد فرضت « شكيم » على شعبها ستاراً حديدياً ، حتى لا يتأثر دينياً بوجود « الهيكل » في « أورشليم » ومن أجل ذلك صنعت « إسرائيل » عجلين من الذهب ، وطلب الملك إلى شعبه أن يتوجه إليهما بالعبادة ، وأن يقيم حولهما الأعياد .

ولم تدم « إسرائيل » طويلاً ، فقد كانت تعاني – منذ قيامها – نزاعاً مع جيرانها ومع شقيقتها ، فضلاً عن الإفساد الذي استهلت به قيام أركانها ، بأن كفرت بالوحدانية ، وتحولت إلى عبادة عجول الذهب ، ثم ما فشا في شعبها من انحطاط خلقي ، وتحطيم للقيم الإنسانية ، والاجتماعية .

فقد هيج الله عليها الأُمم والشعوب التي تحاصرها من حولها ، ليتبروا ما شيدوه وعمروه تتبيرا ، فهاجمها « شيشنق » – فرعون مصر – وسيطر عليها ، ثم ضمها مع شقيقتها « يهوذا » إلى حدود « مصر » وأزال اسميهما من خريطة العالم .

ولندع للأسفار أن تصور لنا ما أحدثه اليهود في الأرض من الإفساد في فترة حكم « مَنَسَّى بن حزَقيَّا » وأبنائه الذين تولوا الملك من بعده ، فتقول :

(كان « منسى » ابن اثنتي عشرة سنة حين ملك ، وملك خمساً وخمسين سنة في أورشليم ، وعمل الشر في عينى الرب ، حسب رجاسات الأُمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل ، وعاد فأقام مذابح البعل ، ومرتفعات للنيران ، وسجد لكل جند السماء وعبدها ، وبنى لها المذابح في بيت الرب ، الذي قال عنه : « في أورشليم أضع اسمي فيه ... واستخدم جاناً وتوابع ، وأكثر عمل الشر في عيني الرب ، ووضع تمثال السارية في بيت الرب ... .

« وتكلم الرب على يد عبيده قائلاً : من أن « منسى » — ملك يهوذا — قد عمل هذه الأرجاس ، وأساء أكثر من جميع الذي عمله الأموريون قبله ، وجعل « يهوذا » يخطئ بأصنامه ! هأنذا جالب شراً على « أورشليم » و « يهوذا » حتى إن كل من يسمع به تطن أُذناه .. !

وأمسح « أورشليم » كما يمسح واحد الصحن ، ويمسحه ويقلبه على وجهه ، وأرفض بقية ميراثي ، وأدفعهم إلى أيدى أعدائهم ، فيكونون غنيمة ، ونهباً لجميع أعدائهم ... . حتى يقول : « لقد سفك « منسى » دماً بريئاً كثيراً جداً ، حتى ملأ أورشليم من الجانب إلى الجانب » (١) .

ثم سلك « آمون » ابنه ، وذريته من بعده مسلك أبيهم ، حتى جاء حكم « يهوياكين » الذي ظهر في عهده « « نبوخذ ناصر » — حاكم بابل — .

وبهذا التصوير تبرز أمامنا واضحة جلية صورة حية من اعترافات كتبهم عن إفسادهم في الأرض إفساداً مستوفياً لكل العناصر المستوجبة لغضب الله على بني إسرائيل ، وإسقاط العقوبات عليهم ، تصفعهم على رقابهم الصلبة ، وتوقظ من حوافزهم الدينية ، التي توارت خلف حجب الشهوات والمعاصي .

(١) راجع سفر الملوك الثاني . الاصحاح ٢١ والاصحاح ١٧ في تصويره لفساد الملك آحاز — ملك يهوذا — .

العبـاد المسلطون عليهم :

بعد أن غزاهم « شيشنق » — فرعون مصر — وضم المملكتين إلى حدود مصر ، انتقلت السلطة عليهم من بعده إلى « الأشوريين » حيث استولى « سرجون الأول » على ما كان يسمى « إسرائيل » ، ثم تبعه « سرجون الثاني » فتابع خطة سلفه في تمزيقهم وتشريدهم وضم الجزء الجنوبي — « يهوذا » من قبل — إلى حدود الأشوريين ، وتم ذلك في القرن السادس ق . م تقريباً .

وفي أوائل القرن الخامس ق.م استردت « مصر» بقيادة فرعونها « نخاو » سلطتها على مملكتي الشمال والجنوب اليهوديتين ، كما احتلت مملكة الأشوريين ، وقتلوا من اليهود في هذه الحروب عدداً كبيراً .

ثم حلت باليهود الطامة الكبرى ، في فترة حكم « يهوياكين » الذي اتبع طريق آبائه في الارتداد عن التوحيد ، والسجود للأصنام ، وهتك الحرمات ، ونشر الفساد ، فكانت حملات « نبوخذ ناصر » أو « بختنصر » — حاكم بابل — هي أشد الحملات ضراوة وفتكاً ، وتخريباً للقدس .

ففي **الحملة الأولى :** حاصرت جيوشه مدينة « القدس » وأخذ « يهوياكين » ونساءه سبايا كما أسر كل رؤساء « أورشليم » والمحاربين فيها ، ونقل مهرة الصناع إلى « بابل » ونهب خزائن الهيكل ، وقصر الملك ، ونصب على الباقين من شعبها ملكاً آخر هو « صدقيا ».

لكن « صدقيا » لم يحفظ عهد الرب ، وانتهج مسلك آبائه في الإفساد ، وهزأ بوصايا « أرميا » فبعث الله عليه « بختنصر » في **حملته الثانية ؛** لإهلاك اليهود سنة ٥٨٨ ق . م تقريباً ، فحاصر « القدس » حتى اشتد بأهلها الجوع ، وهربوا من المدينة ، وفرت جيوشها ، ثم قبض على « صدقيا » وقتل أبناءه أمام عينيه ، ثم قلع عينيه ، وحمله الى « بابل » وقد نكل البابليون بكل من وقع في أيديهم من الشعب ومن المحاربين شر تنكيل .

وفي **الحملة الثالثة :** هاجم « نبوز رادان » — قائد جيش بابل — مدينة القدس ، ثم دخلها ، وأحرق الهيكل ، وقصر الملك فيها ، وكل بيوت العظماء ، وهدم جميع أسوار المدينة وبيوتها ، ثم استاق بقية الشعب إلى « بابل » ونهب ما بقي من آنية الذهب والفضة

وأسر كبار الموظفين وسرايا رئيس الكهان ، ثم قتلهم في « بابل » (١) .

هذا ، وقد لخص « سفر الأيام » (٢) صورة ما وقع للقدس آنذاك ، فقال :

(أرسل الملك « نبوخذ ناصر » فأتي بـ « يهوياكين » إلى بابل ، مع آنية بيت الرب الثمينة ، وملك « صدقيا » – أخاه – على أورشليم ... فعمل الشر في عيني الرب آلهه ، ولم يتواضع أمام « أرميا » – النبي – وتمرد على الملك ، وصلب عنقه ، وقوى قلبه عن الرجوع إلى الرب .. إله إسرائيل .

« حتى إن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة ، حسب كل رجاسات الأُمم ونجسوا بيت الرب ، الذي قدسه في أورشليم .. .

« فأرسل الرب إله إسرائيل إليهم رسلاً ، فكانوا يهزأون برسل الله ، ورذلوا كلامه وتهاونوا بأنبيائه ، حتى ثار غضب الرب على شعبه ، حتى لم يكن شفاء .. .

« فأصعد الرب عليهم ملك الكلدانيين ، فقتل مختاريهم بالسيف ، في بيت مقدسهم ، ولم يشفق على فتى أو عذراء ، ولا على شيخ أو أشيب ، بل دفع الجميع ليده !

« وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة ، وخزائن بيت الرب ، وخزائن الملك ، ورؤسائه أتي بها جميعاً إلى بابل ، وأحرقوا بيت الله ، وهدموا أسوار أورشليم ، وأحرقوا جميع قصورها بالنار ....

« وسبى الذين بقوا من السيف في بابل ، فكانوا له ولبنيه عبيداً ، إلى أن ملكت مملكة فارس ... » .

ولم يغفل « التلمود » أن يسهم في تصوير تلك الحقبة المهلكة من تاريخ كبواتهم ، فيتحدث عن تخريب « بيت المقدس » يقول :

« عندما بلغت ذنوب إسرائيل مبلغها ، وفاقت حدود طاقة الاحتمال ، وعندما رفضوا أن ينصتوا لكلمات وتحذيرات النبي « أرميا » هاجر منها إلى بلاد « بنيامين » ...

(١) راجع ذلك في « سفر الملوك الثاني » الاصحاحان : ٢٤ ، ٢٥ ، وراجع كتاب « الأنس الجليل بأخبار القدس والخليل » للشيخ مجير الدين العليمي . ص ١٤٨ وما بعدها .

(٢) راجع « سفر الأيام الثاني » الاصحاح : ٣٦ .

« فدمر « نبوخذ ناصر » بلاد اسرائيل ، وحطم الهيكل المقدس ، ونهب مجوهراته ، وتركه فريسة للنيران الملتهبة !

« وبعد أن استولى « نبوخذ ناصر» على المدينة توجه مع أمرائه ، وضباط جيشه إلى داخل الهيكل ... فوجد علامة على أحد الجدران كأن أحداً قتل أو أصيب ، فسأل عن القتيل فقالوا : زكريا بن يهوياداه — كبير الكهنة — لأنه كان يحذرنا في كل ساعة من عقاب اعتداءاتنا ، وقد سئمنا من كلماته ، فانتهينا منه . .

فذبح جنود « نبوخذ ناصر » سكان أورشليم : كهنتها وشعبها ، كهولها وشبابها ، نساءها وأطفالها ، وعندما شاهد كبير الكهنة هذا المنظر ألقى بنفسه في النار ، التي أشعلها « نبوخذ ناصر » في الهيكل ، وتبعه بقية الكهنة ، ثم ضرب جنود « نبوخذ ناصر » السلاسل الحديدية في أيدي باقي الإسرائيليين ، وساقوهم إلى السبى »(١) .

ويعرض « أبو الكلام أزاد » لهذه المرحلة من تاريخ اليهود ، فيقول :

كان « نبوخذ ناصر » — الذي سماه العرب بختنصر — امبراطوراً قاهراً ، وملكاً جباراً ، انتشرت سطوته ، وعمت هيبته إلى القريب والبعيد ، وأغار على فلسطين والشام مراراً ، وقضى بغاراته الأخيرة ليس فقط على البقية الباقية من حكم اليهود ، بل على حياتهم القومية كذلك ، وقد كانت هذه المأساة من أفجع مآسي التاريخ القديم لا تزال تردد صدى النوح والبكاء عليها صفحات العهد العتيق ، وليست أسفار « حزقيال » ، و « أرمياء » ، و « أشعياء » الأنبياء إلا رثاء يفتت الأكباد ، على دمار الحياة القومية لشعب كبير .

وقد كانت الإغارة البابلية سيلاً مخيفاً ، يحمل معه الهلاك فوق الهلاك ، فخربت مدن اليهود ، ودمرت هيكلهم المقدس ، وعفت على آثارهم الدينية والقومية ، وليس هذا فحسب بل ضاعت من جرائها أكبر ثروته الدينية ، وهي « التوراة » إلى الأبد ، وقد أكلت سيوف الفاتحين جمعاً عظيماً من اليهود ، وتشرد جمع عظيم منهم في نواحي العالم ، أما الباقون فوقعوا في الأسر ، وساقهم الجيش البابلي المنتصر كالبهائم إلى بابل ، فلم يبق في أورشليم

(١) راجع كتاب : « التلمود . تاريخه وتعاليمه » لظفر الله خان . ص ٦٦ .

إلا الأنقاض ، وأصبح بقية السيف من اليهود يعيشون في بابل عيشة الأسر والذل ، وقد دام هذا الحال سبعين سنة » (١) .

ولعلنا بهذا التصوير الدقيق ، المؤيد باعترافات اليهود أنفسهم ، وبتسجيل كتبهم المقدسة للأحداث ، وكذلك صحفهم التي ضمت إلى الترجمة السبعينية (٢) . . نكون قد أوفينا — إلى حد ما — عرضنا للصورة التفسيرية ، بمضامينها التاريخية عن أحداث الإفسادة الأولى لبني إسرائيل في الأرض .

وهي — بحق — صورة مستوفية لكل خصائص الإفساد في الأرض ، طبقاً لما أوصلتنا إليه مرحلة « تحديد المفاهيم » .

ويغلب على الظن أنه قد تجلى لنا كذلك : من هم العباد الذين هيجوا وأثيروا عليهم من الله ، لإذلالهم ، وتتبير ما عمروه ، وليسوءوا وجوههم .

كيف ردت لهم الكرة ؟

استطاع اليهود — بعد سبعين سنة من سبيهم في بابل — أن يتصلوا بالامبراطور الفارسي « قورش » (٣) ، كما كان أمراء بابل أنفسهم يتابعون الاتصال به سراً ، لينقذهم من عسف الملك « بيل شازار » الذي اشتهر بالظلم والفسق .

ويقول مؤرخو اليونان : إن والياً من ولاة بابل السابقين ، يدعى « غوب رياس » قد هرب إلى بلاط « قورش » ثم صحبه في زحفه على بابل ، ودله على مداخل أسوارها ، وأن انتصار « قورش » كان بمؤامرة وتدبير هذا الوالي ، وبمساعدة سبايا اليهود .

وبانتصار « قورش » انتهى عهد الأسر ، وعاد إلى « أورشليم » خمسون ألف أسرة يهودية ، ليباشروا تعميرها من جديد ، وليرفعوا بناء الهيكل ، وأصدر « قورش » أوامره

---

(١) راجع كتابه : « ويسألونك عن ذي القرنين » ص ١١٧ وما بعدها .

(٢) قام بهذه الترجمة اثنان وسبعون عالماً من أحبار اليهود ، بأمر بطليموس مصر آنذاك « فلا دلفس » سنة ٢٤٤ ق . م ، وقد ضم إليها صحف « أبو كريفا » ومنها صحيفة « أستير » ولم تكن موجودة في النسخة العبرية . ولا في النسخة الفلسطينية .

(٣) كلمة « قورش » أو « كورش » من اللغة البهلوية ، وينطق أحياناً « خورش » أو « غورش » وهو من سرة « هخامنشي » الفارسية ، وظهر في سنة ٥٥٩ ق . م .

إلى جميع الممالك الخاضعة له بمساعدة اليهود على العودة ، وإمدادهم بالتبرعات والهدايا لإعادة بناء الهيكل ، كما أمر بإعادة جميع آنية الذهب والفضة ، التي كان « نبوخذ ناصر » قد استولى عليها منهم ، ونقلها إلى معابد بابل ، وقد صرح « سفر عزرا » بأن عددها خمسة آلاف وأربعمائة إناء .

وكان نص أمر « قورش » إلى الحكام التابعين له بمساعدة اليهود : « جميع الممالك دفعها إلىّ الرب إله السماء ، وأوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم ، فمن منكم من شعبه ، ليكن إلهه معه ، ويصعد إلى أورشليم ، فيبني بيت الرب »(١) .

ومن بعده أصدر الملك « أردشير » ــ ويسميه سفر عزرا « أرتحشستا » ــ أمره إلى كل الخزنة في عبر النهر بتنفيذ طلبات « عزرا » الكاهن ، وحمله بهدايا من الذهب والفضة ليقدمها إلى الهيكل » .

واستمر بنو اسرائيل ينعمون ويزدهرون في ظل الحماية الفارسية ، والفرس بدورهم يمدونهم بكل أسباب القوة والمعونات المختلفة ، ويغدقون عليهم من الهدايا والتبرعات ، ويقربون زعماءهم إليهم ، حتى قرت أعينهم ، وتفرغ « عزرا » لكتابة كتابهم المقدس ،

وهكذا ، بسط بنو إسرائيل سلطانهم مرة أخرى على « بيت المقدس » وانتعشت أحوالهم المادية والدينية والعسكرية ، وكان هذا مصداق قول الله :

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عليهم ، وَأَمْدَدْنَاكُمْ بأموالٍ وبَنِينَ ، وجَعَلْنَاكُمْ أكثَرَ نَفِيراً) .

ولعل هذا السياق التاريخي للأحداث يتفق مع ما ذهب إليه المفسرون من أن معنى اللام في (لكم) للتعليل (٢) ، فتفسيرها على ذلك : ثم أعدنا السلطة والدولة إلى أيديكم ، بسبب أنكم ثبتم إلى الله ، ورجعتم إلى التوحيد ، وانتهيتم عن الشرور والآثام .

ولا يلزم من هذا التفسير أن يكون بنو إسرائيل قد استعادوا دولتهم بحروب قاموا بها بأنفسهم ، بل يتأتي ذلك ولو كان المحارب من غيرهم ، ثم منحهم إياها .

(١) راجع العهد القديم . سفر عزرا . الاصحاح الأول .

(٢) راجع حاشية الشهاب جـ ٦ . ص ١١ ، وروح المعاني للألوسي جـ ١٥ ص ٨ وما بعدها .

٤ – الإفسادة الآخـــرة :

الإ فسادة الآخـرة تكون في مقابلة الإ فسادة الأولى ، وهذا التعبير القرآني يشير إلى أن عقوبتها ستكون من الهول والشناعة ، بحيث لا يمر عليهم بعدها ما يماثلها في القسوة والفظاعة وأن ما عداها من مرات إفسادهم والتنكيل بهم – مما ينتظر أن يكون متأخراً في الزمن عن هذه المرة الآخرة – سيكون في دركة أقل منها .

ينصرف اليهود فيها عن التوحيد ، فيشركون بالله ، ويحتقرون بيته ولا يعظمونه ، ولا يتخذونه للعبادة والصلاة ، ويكذبون الأنبياء والمرسلين ، ويعذبونهم في السجون ، ويقتلونهم إرضاء لشهواتهم ، ويقدسون الكهنة والأحبار ، الذين خلت قلوبهم من الإ يمان والرحمة ، وأفعمت إثماً ودعارة .

ويصور لنا « الانجيل » مدى ما وصل إليه بنو إسرائيل من إفساد في الأرض ، واستهتار ببيت الرب المقدس ، الذي أقامه في الأرض ليذكر فيه اسمه ، فيسجل عليهم أنهم اتخذوه سوقاً يبيعون فيه ويشترون ما يشاءون من بقر وغنم وحمام ، وملأوا ساحته بموائد الصيارفة ، فحولوه إلى مغارة لصوص .

فينص انجيل « متى » على أن المسيح عندما دخل أورشليم . . « ودخل إلى هيكل الله أخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل ، وقلب موائد الصيارفة ، وكراسي باعة الحمام ، وقال لهم : مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعي ، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص»(١)

وذكر انجيل « يوحنا » : أنه وجد في الهيكل بقراً وغنماً ، وأنه صنع سوطاً ، ليطرد به جميع من كان في الهيكل منهم (٢) .

كما يسجل الانجيل مدى ما بلغه بنو اسرائيل من تمرد على دعوة الله ورسله ، وإنكارهم رسالة المسيح ، وتصديهم له ، وتحديهم لنبوته ، فيقول :

« ولما جاء – المسيح – إلى الهيكل ، تقدم إليه رؤساء الكهنة ، وشيوخ الشعب ، وهو يعلم قائلين له : بأي سلطان تفعل هذا ؟ ومن أعطاك هذا السلطان ؟

---

(١) انجيل متى . الاصحاح ٢١ / ١٠ .

(٢) انجيل يوحنا . الاصحاح ٢ / ١٣ .

فأجاب يسوع : وأنا أيضاً أسألكم كلمة واحدة ، إن قلتم لي عنها أقول لكم : بأي سلطان أفعل هذا . معمودية يوحنا . . من أين كانت ؟ أمن السماء ؟ أم من الناس ؟

ففكروا في أنفسهم قائلين : إن قلنا من السماء . يقول لنا : فلماذا لم تؤمنوا به ؟ وإن قلنا من الناس . نخاف من الشعب ؛ لأن يوحنا عند الجميع مثل النبي .

فأجابوا يسوع ، وقالوا : لا نعلم .

فقال لهم هو أيضاً : ولا أنا أقول لكم : بأي سلطان أفعل هذا »(١) .

وقد ندد المسيح بأحبار اليهود ؛ لسبق معارضتهم لنبوة « يحي » ولرضاهم عن ذبح « هيرودس » له ، إرضاء لشهوته من امرأة أخيه ، وفي هذا الشأن يذكر انجيل « متى » أن :

« هيرودس كان قد أمسك يوحنا ، وأوثقه وطرحه في السجن ، من أجل « هيروديا » – امرأة فيليبس أخيه – لأن يوحنا كان يقول له : لا يحل أن تكون لك ، فلما أراد أن يقتله خاف من الشعب ، ثم لما صار مولد « هيرودس » رقصت ابنة « هيروديا » في الوسط ، فسر بها هيرودس ، فقالت له : أعطني هنا على طبق رأس يوحنا المعمدان . . فأرسل وقطع رأس يوحنا في السجن ، وأحضرت رأسه على طبق ، ورفع إلى الصبية ، فجاءت به إلى أمها » (٢) .

ويتوسع الانجيل في عرض مقالة المسيح ، التي يصف بها زيغ رجال الدين ، وانحراف كهنة بني إسرائيل ، ويدمغهم بالإفساد والكفر بالرسالات ، وقتل الأنبياء ، وإضلال الناس .

ونورد هنا بتصرف ما اخترناه من الصفات التي لطخهم بها ، يقول :

« ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون ، لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس ، فلا تدخلون ، ولا تدعون الناس يدخلون !

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ؛ لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ، ولعلة

---

(١) انجيل متى . الاصحاح ٢١ / ٢٣ .

(٢) انجيل متى . الاصحاح : ١٤ .

تطليون صلواتكم أيها القادة العميان ، الذين يعفون عن البعوضة ، ويأكلون الحمل .

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تنقون خارج الكأس والصفحة ، وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة .

أيها الحيات والأفاعي ، كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ !

أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة ، فمنهم تقتلون وتصلبون ، ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة ... » (١) .

ثم كانت الطامة الكبرى التي بلغت بفسادهم ذروته ما بيتوه من تآمرهم على قتل آخر رسل بني إسرائيل – وهو السيد المسيح – وصلبه ، شارك في هذا الجرم الشنيع ، وتولى كبر هذا الكفر الصراح بالنبوات وبرسالات السماء رؤساء الكهنة ، وشيوخ الشعب من بني إسرائيل .

ونورد هنا بعض الفقرات المعبرة عن المؤامرة وحادثة الصلب من الانجيل ، يقول :

(اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب إلى دار رئيس الكهنة ، الذي يدعى « قيافا » وتشاوروا ، لكي يمسكوا « يسوع » بمكر ، ويقتلوه ، ولكنهم قالوا : ليس في العيد ؛ لئلا يكون شغب الشعب ! وكان رؤساء الكهنة والشيوخ ، والمجمع كله يطلبون شهادة زور على « يسوع » ليقتلوه .

أخذ « بيلاطس » – الوالي – ماء وغسل به يديه قدام الجمع قائلاً : أنا بريء من دم هذا البار ! – لعدم وجود بينة – أبصروا أنتم ! فأجاب جميع الشعب وقالوا : دمه علينا وعلى أولادنا ... فجلده ، وسلمه ليصلب » (٢) .

وهكذا ينفذون العقاب والصلب فيمن شبه لهم أنه المسيح ! ! بعد أن رفعه الله إليه .

دور التنكيل والتتبير :

ثم جاء دور العقاب والتنكيل ، جزاء وفاقاً على إفسادهم في الأرض ، وقد تنبأ السيد

---

(١) المصدر السابق . الاصحاح الثالث .

(٢) انجيل متى . الاصحاحان : ٢٦ ، ٢٧ .

المسيح بما سيسلط عليهم في هذه المرحلة الآخرة من إبادة وتدمير ، لكفرهم بالرسالات وانحرافهم عن الشريعة ، فقال — عن تخريب القدس — :

« يا أورشليم ، يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين إليها ، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة أفراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا ! هوذا بيتكم يترك لكم خراباً » (١) .

وبكى على المدينة ، وقال : « إنه ستأتي أيام يحيط بك أعداؤك بمترسة ، ويحدقون بك ، ويحاصرونك من كل جهة ، ويهدمونك وبنوك فيك ، ولا يتركون فيك حجراً على حجر » (٢)

كما تنبأ بنقض الهيكل وهدمه ، حيث قال لتلاميذه أمام أبنية الهيكل :

« أما تنظرون جميع هذه ؟ ! الحق أقول لكم : إنه لا يترك هنا حجر على حجر لا ينقض » (٣) . وكل هذا مصداق قوله تعالى : (فإذا جاء وعد الآخرة ، ليسوءا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيرا) .

ويتجلى من هذا البيان القرآني : أن المسلطين على بني إسرائيل في المرة الآخرة قد أوقعوا بهم وبمدينتهم ، وبمنشآتهم المقدسة أنواعاً من التدمير والهلاك اتخذت ثلاثة مظاهر : —

١ — أن التنكيل بهم قد شمل إيلام النفوس وتشويه الأبدان والوجوه ، وهذا ما تصدقه الأحداث .

٢ — أن المهاجمين لم يرعوا فيهم إلا ولاذمة ، بل خربوا وكسروا كل ما تقع عليه أيديهم من مظاهر التعمير والازدهار ، الذي أغدقه الله عليهم بعد ثوبهم إليه ، ثم نزعه منهم بعد أن أعرضوا وأشركوا وفسقوا .

٣ — أن الغزاة قد انقضوا على الهيكل فنقضوه ، بعد أن أفنى اليهود أموالهم وأعمارهم في إعادة بنائه إثر عودتهم من أسر بابل .

وقد عبر القرآن عن هذا التخريب بصيغة المصدر المؤكد (تتبيرا) لدلالتا على الشمول

(١) انجيل متى . الاصحاح : ٢٣ / ٣ .
(٢) انجيل لوقا . الاصحاح : ١٩ / ٤١ .
(٣) انجيل متى . الاصحاح : ٢٤ / ١٤

والإحاطة بكل ما صدقات التتبير ، وليدل على أن التخريب والاهلاك قد نزل بكل ما يمكن أن يتصوره الذهن من أنفس وأموال ، وزروع وثمار ، وعمارات ، وأمثال ذلك .

كما صيغ في قالب التنكير ، ليلمح إلى هول ما حل بساحتهم من عذاب ونكال .

والمحققون من المؤرخين على أن التخريب الكبير الذي تدل عليه الآيات الكريمة قد وقع في عهد « تيتوس » الروماني ، حيث تم تخريب بيت المقدس ، وتدمير الهيكل ، وذبح اليهود بصورة جماعية في الثامن من شهر ديسمبر سنة ٧٠ م ، ومن نجا منهم فر مهاجراً إلى بلاد أخرى ، في الجزيرة العربية ، أو في مصر ، وغيرهما .

ويصف المؤرخ « يوسفوس » هنا التخريب ، فيقول :

(... وكان « تيتوس » كلما وجد الجنود الرومان قد فرغوا من قتل جميع الناس في المنطقة التي يسيطرون عليها أمرهم أن يخربوا أورشليم ومعبدها ، وأن يقلبوها ظهراً على عقب ...) (١) .

لقد قاست المدينة ذل الحصار الروماني حتى أنهكتها المجاعة ، وقامت فيها العصابات ، والحروب الأهلية ، حتى سالت الطرقات بدماء الضحايا البشرية ، وكان أهلها يتسللون من أسوارها وهم يحبون على أيديهم وأرجلهم كالأشباح الذابلة ، التي أكلتها المجاعة ، وجففت دماءها الأهوال والمخاوف ، فإذا ما ظهروا من الأسوار تصيدهم جنود الرومان المحاصرون ، يبقرون بطونهم لسلب ما يكونون قد ابتلعوه وخبأوه فيها من ذهب أو فضة ، ثم دخل المغيرون المدينة فنهبوا وقتلوا وهتكوا الأعراض ، ثم أحرقوا كتبهم وهيكلهم ! .

وقد تابع الامبراطور الروماني « إيليوس هدريان » سنة ١٣٦ .م ما بدأه « تيتوس » فأجهز على البقية الباقية من اليهود في القدس ، وقوض كل شيء فيها ، وأقام مكان الهيكل معبداً لـ « جوبيتر » ـ كبير آلهة الرومان ـ ووضع فيه تمثالاً لـ « فينوس » وغير اسم المدينة ، وجعله « إيليا كابيتوليا » (٢) وحظر على اليهود دخولها ، وكان حكم الاعدام جزاء من تسول له نفسه أن يتعدى حدود هذا الحظر ، وانتهى بذلك تاريخ اليهود كأمة .

(١) كتاب « إسرائيل ركيزة للاستعمار » للدكتور حسن ظاظا . ص ١٢١ .

(٢) اسم مركب من « إيليا » وهو اسم « إيليوس » نفسه ، و« كابيتول » وهو اسم معبد « جوبيتر » .

ثم جاء النصارى فدمروا كل أثر باقٍ لليهود في القدس ، ووضعوا القمامات على مكان الهيكل ، حتى كانت المرأة الرومانية تنذر أن تبعث بخرق حيضها من « القسطنطينية » لتطرح على مكان الهيكل في القدس (١) .

ولعلي بهذا البيان أكون قد ألقيت بعض الأضواء التي تعين الباحث على أن يتعرف على معالم الإفسادتين الكبريين لبني إسرائيل ، وعلى العقوبات الإلهية التي أثارها الله عليهم لإهانتهم ، وإذلالهم ، جزاءً وِفاقاً ، وناموساً حقاً ، جرى عليهم بما كسبوا ، وبما فرطوا في جنب الله .

وهناك .. إفسادات أخرى لبني إسرائيل ، سابقة على هاتين الإفسادتين ، ولاحقة بهما وردت بها آيات القرآن ، وتعرضت لها السنة الطاهرة ، ولعلنا نوفق – في وقت لاحق – لنستطيع متابعة البحث فيها ، حتى تنجلي أمام العالمين مخازيهم ، ومسيرة إفساداتهم في الأرض ، إلى أن تنطفئ بهم شموع حياتهم على أيدي المسلمين ، كما تنبأت بذلك الأحاديث ! .



نتائج البحث وتوجيه السياسة المعاصرة :

مما ينبغي أن يعلم : أن « القرآن » حين يعرض لأنباء إفساد بني إسرائيل لا يهدف من وراء ذلك تسجيل أحداث تاريخية لهم ، ولا أن يبين للناس مدى اهتمامه بأمة قد استنفدت رسالتها أهدافها المؤقتة ، وأصبحت غير صالحة للاستمرار .

ولكنه كتاب « المسلمين » الخالد ، وسياسته : أن يلتقط من أحداث الغابرين ما يعرضه عبرة ودرساً للباقين ، حتى يتعرفوا على معالم طريق المجد ، ويتبينوا الكبوات وأسبابها فلا يقربوها .

وعصارة ما أوصلتنا إليه هذه الدراسة :

١ – أن التعرف على الله ، والثوب إليه ، والاهتداء بنور تعاليمه ، والتفتح على الكون

(١) راجع كتاب « الأنس الجليل بأخبار القدس والخليل » للعليمي . ص ١٧٠ .

والحياة ، لتعميرها ، وتحقيق معنى إمارة الإنسان عليها . . ذلك هو طريق السمو والقوة ، والتمتع بالحياة تمتعاً سليماً ، والفوز بالرضى في العقبى .

٢ – وأن تصلب الرقبة والتكبر والتأله الإنساني ، وإغفال التعاليم ، والانحراف عن الإيمان بوحدانية الواجب ، والاستهتار بالدعاة ، أو تعذيبهم والتنكيل بهم – هذا هو الطريق المنحدر إلى الهاوية ، حيث يسلط على المنحرفين المفسدين من يهلكهم ، ويسوء وجوههم .

وفي ضوء هذه النتائج يمكننا أن نمسح الميادين السياسية في العالم العربي الإسلامي ؛ وندرس الدعوات و « الأيديلوجيات » فيها ، فمن كان منها قد اجتث جذوره ، وتفصى عن الدين ، واطرح الإيمان بالوحدانية ، وخضع لمبادئ مخالفة ، فهو مفسد في الأرض ، كما أفسد فيها بنو إسرائيل من قبله ، فحق عليه العقاب كعقابهم .

ولعله مما يحسن أن يذكر هنا : أن هزيمة الجيوش العربية عام ١٩٦٧ . م في مواجهتها العسكرية لأعدائها اليهود لم تكن أمراً شاذاً ، ولا عاقبة غير متوقعة ، ولا مخالفة لقوانين الكون ونواميس الله في تربية الشعوب ، بل كانت في كل أمرها خاضعة للناموس ، متوافقة مع ما قعّده « القرآن » من نظم ، تتبين بها الشعوب طريق الرقي والسؤدد ، وتعلم بها مزالق الانحدار والانحطاط والتحطيم .

فقد كان المحيط العربي آنذاك يطن بنوبات « هستيرية » ترفع شعارات « العلمانية » المنفصمة عن الدين ، وتنفخ في أوداج الحكام كبراً يدفعهم إلى الاستغناء عن الخضوع للخالق وتعاليمه في اصلاح المجتمعات ، بثها وروجها اليهود والصليبيون للقضاء على الخلافة الإسلامية بعد أن فشلت موجات جحافلهم العسكرية في القضاء عليها ، وليسقط على رءوس مجتمعاتنا ذلك الناموس .. ناموس الإفساد في الأرض ، فينحدر ركب حضارتنا إلى الضياع والتتبير .

هذا ، وقد حظيت نبوة « ماركس » – لدى بعض الحكومات المعاصرة في العالم العربي والإسلامي – بتقديس ، دونه احترامهم وتقديرهم لرسالة « محمد » ﷺ ، وألّهوا الآلة والمادة تأليها دونه عبوديتهم لله ، فكانت قيادات لا دينية ، تؤمن بما يسمونه « حتمية الحل الاشتراكي الشيوعي » وبنظريات : التفسير المادي للتاريخ .

فلا غرو – بعد ذلك – أن نرى هذه القيادات الفاشلة ، المعاندة لنواميس الكون ، التي أودعها الله فيه ، تفر في حروبها أمام الأعداء كأسراب النعام ، ثم هي تستأسد في طحنها للدعاة ، وانتهاكاتها لحرمات الإنسانية ، فكانت – بحق ! – قيادات مفسدة في الأرض ، فحقت عليها كلمة العذاب ، وسلط الله عليهم أعداءهم ، فنهبوهم ودحروهم ، وسودوا صفحات وجوههم أمام العالم والتاريخ .

ولعل فيمن ذاق كأس العذاب وصابه منهم .. يكون عبرة ودرساً لمن بقى .. ! ! .

فهل قادة المسلمين ، وزعماء العرب .. على استعداد لوقفة ، يدرسون فيها خطوات مستقبلهم تحت هذه الأضواء ؟ ! ! .

